الباب الأول

نظرية الاستعارة

الفصل الأول

الاستعارة عند القدماء

كثر حديث القدماء حول مفهوم الاستعارة، وقد عرّفها ابن رشيق القيرواني بقوله: (الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع... والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتدارا ودالة ليس ضرورة؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم، فإنما استعاروا مجازا واتساعا، ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة، وهم يستعيرون له مع ذلك؟ على أنّا نجد أيضا اللفظة الواحدة يعبر بها عن معان كثيرة... وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم، ولكنه من الرغبة في الاختصار، والثقة بفهم بعضهم عن بعض) [1].

إن ابن رشيق يشير إلى الهدف من الاستعارة عند العرب ليس لقلة الألفاظ أو لضيق الأفكار، إنما هذا من باب مخاطبة الذكاء عند المتكلم والمستمع، فكلاهما يشترك في هذه الأحاجي التي تعتمد على ذكاء المستمع في فهم المقصود بالقول، وذكاء المتكلم في صنع عبارات تحتاج من مستمعه أن يُعمل ذهنه فيها، وهذا الأمر يوضح ديناميكية الاستعارة، فمن كانت لديه القدرة على إيجاد ترابط بين الأشياء المتشابهة؛ كان مبدعا، ومن كانت لديه القدرة على فهم هذا الترابط بين الشيئين المتشابهين كان مستمعا جيدا، وهذا وجه الإبداع في الاستعارة عند القدماء .

ويذكر ابن رشيق على لسان الرماني عن أعلى درجات الاستعارة، وهى الاستعارة الحسنة ما أوجب بلاغة، ببيان لا تنوب منابة الحقيقة كقول امرئ القيس: (قيد الأوابد)[2] إنها أعلى درجات الاستعارة كما يرى الرماني. التي تتحول فيها الحقيقة إلى خيال، ثم يتحول الخيال إلى حقيقة، فيتكلم الناس بها على أنها حقيقة بعد أن استقر في أذهانهم أنه حقيقة لا خيال، بل إنهم يعجزون عن العودة إلى الحقيقة، لقد أصبحت عبارة (قيد الأوابد) أقوى وأوضح في الدلالة على السرعة من عبارة: فرس سريع، ولا تنوب العبارة الثانية عن الأولى رغم أن الثانية تمثل الحقيقة. ولكننا نجد د. عبد الإله سليم يقول: إن وظيفة الاستعارة عند القدماء إما اتساعية، أو تأكيدية، أو تجميلية، أو

---

(١) العمدة : ابن رشيق القيرواني ، مطبعة حجازي ، القاهرة ١٩٣٤م ص٢٤٣/١.
(٢) المرجع السابق :٢٤٢/١

توضيحية، أي أنها صيغة زائدة، يتم الانتقال إليها حسب رغبة مستعمليها وقد بينا سابقاً أن الاستعارة أعم من أن تقتصر على وظيفة جمالية، وسنؤكد في فقرات هذا الفصل أنها ليست اتساعا زائدا تتحكم فيه رغبات المتكلمين، وعنوان التمكن من اللغة وغرائبها، وسنبين أنها ضرورة من ضرورات الحياة، وآلية فعَّالة للتعليم وتجاوز الحبسات التواصلية لدى الأطفال والبالغين[1].

هذا القول السابق لم يُدخل فيه عبارة ابن رشيق (ولكنه من الرغبة في الاختصار، والثقة بفهم بعضهم عن بعض) التي تشير إلى أن هدفهم من الاستعارة التواصل بين الناس أيضا، فالاستعارة تمكنهم من التفاهم .

هذه الوظيفة (التفاهم) أساسية بالنسبة للاستعارة، وضرورية للتواصل بين البشر، ولهذا استخدمها القرآن الكريم في شرح ووصف أشياء لم يرها الإنسان، كالهدى والضلال والجنة والنار .

ويشير الرماني فيما نقله عنه ابن رشيق إلى درجة من التواصل نستغنى فيها عن الحقيقة، ونلجأ إلى الاستعارة، بل إننا لا يمكن لنا أن نتواصل معا عبر الحقيقة، بل لا بد لنا من الاستعارة، فامرؤ القيس لا يكتفي بوصف فرسه بالسرعة، بل هو قيد للأوابد فعبرت تلك الاستعارة عن شدة سرعته بصورة لا يمكن أن ندركها لو قلنا: إنه سريع أو شديد السرعة، فهو قيد لا ينفك للأوابد، فأينما ذهبتْ كان فرسه قيدا لها، فجمعت الصورة الذهنية للقيد بين الفرس وصفة السرعة، ولهذا قال ابن جني فى تعريف الاستعارة (الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة، وإلا فهي حقيقة) ويعلق ابن رشيق على كلام ابن جني قائلا (وكلام ابن جني أيضا حسن في موضعه؛ لأن الشيء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة، فإذا أعطى وصف غيره سمى استعارة)[2].

فلو جاء الكلام بصورة الحقيقة لا يعد ذلك من البلاغة أو المبالغة، والمبالغة باب لنقل حقيقة إدراك الشيء لدى المتكلم إلى المستمع، فهو يرى هذا الشيئ بتلك الصورة التي يرى الآخر أنها مبالغة نتيجة لما استقر في إدراك المتكلم، فحاول نقل إدراكه إلى الآخرين، فيفهمهم ويقنعهم بما فهمه، وتلك غايته من المبالغة (نقل إدراكه لغيره).

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ، د عبد الإله سليم ، دار توبقال المغرب ٢٠٠١ص٦١

(٢) العمدة ٢٤١/١

ويشير إلى هذا الهدف الاستعاري أبو هلال العسكري بقوله: (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره بغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى، وفصل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه)[1]، وهذا الكلام لا يخرج عن قول ابن جني والرماني في أن الهدف من الاستعارة الشرح والتوضيح والمبالغة والاختصار في اللفظ المعبر عن المعني، وهذه الأهداف تجعل للاستعارة قيمة كبيرة في تحقيق التواصل بين البشر، وفي الوقت نفسه لم يغب عن القدماء ما أدركه المحدثون من أهداف، ووظائف للاستعارة وأنهم أدركوا أنها صيغة زائدة كما قال د.عبد الإله سليم، يتم الانتقال إليها حسب رغبة مستعمليها، بل إنهم يرونها ضرورة (كما ذكر الرماني) أنها تنوب مناب الحقيقة، فتصبح في مواضع معينة ضرورة تتفوق فيها علي الحقيقة، وتنوب منابها، فكيف بنا أن نستغني عنها ؟!

هذا هو تصور القدماء للاستعارة دون الدخول إلي تعريفات كثيرة لها، بل جل حديثنا عن رأي القدماء في الاستعارة كهدف ضروري لتحقيق التواصل بين البشر.

(١) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، عيسى البابي الحلبي بدون تاريخ ص ٢٧٦

الفصل الثاني

مفهوم النظرية الاستعارية

ما الاستعارة ؟

هل الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه؟ أم هي تجسيد للمحذوف ببديل له هو الموجود فيبدو القديم في شكل جديد، ويُفهم المجهول من خلال هذا المعروف؟ وبذلك تتضح الصورة فى ذهن المستمع ؟

إن الاستعارة في أبسط صورها هي وسيلة لفهم مجال من خلال مجال آخر، وهذا الفهم يتطرق إلى كل مجالات الحياة التي يعيشها الناس جميعا، فيستخدمونها في إدراك العالم من حولهم بكل دقائقه التي يرونها والتي لم يروها، فيصبح السؤال: أين المجال الذي لا تدخله الاستعارة في عالمنا ؟

عند الحديث عن العلاقات والترابطات والمشابهات تفرض الاستعارة نفسها، إنها الوسيط بين الذهن البشري، وما يحيط به من أشياء؛ فبها يُفسر الملتبس والمبهم، ونتجاوز كثير من عراقيل التواصل بين البشر .

إن الاستعارة وسيلة أساسية تساعد الإنسان على التعبير عن إمكاناته، وقدراته على النظر إلى الأشياء من زوايا غير مسبوقة تساعده على إبداع الترابطات، وملاحظة التشابهات بين الأشياء (وبذلك تصبح الاستعارة وسيطا ثقافيا يمكن من تطوير المعارف، وابتكار التصورات... إنها عملية تنظيم لغتنا وفكرنا وسلوكنا، ومعظم أعمالنا اليومية وتصاحبنا في كافة أوقاتنا)[1].

بهذا التصور عن الاستعارة يمكننا أن نرى هذه الظاهرة بشكل أوضح، فهي تمثل تصورنا للأشياء، وكيف يمكن أن نربط بينها وبين غيرها مما يشبهها، أو يقاربها من جانب ما، ودور الجانب اللغوي في هذه العملية العقلية، حيث تقوم في أساسها على تصور ذهني عن الأشياء، تقوم اللغة باستدعائه من الذهن باعتبارها مثيرا لغويا؛ يستدعى الصورة الذهنية التي تقابله من الذهن .

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ٥٧

ما يجب دراسته من عناصر الظاهرة الاستعارية :

أولاً: الجانب العقلي :

هو الجانب الذي تتم فيه وبه عملية الاستعارة، وهنا تبدو الحاجة الملحة للاستعانة بالنظرية التصورية، ومعطياتها لمعرفة طريقة تصورنا للشيء وخصائصه، وما يمكن أن يثيره ذكر هذا الشيء في الذهن من أشياء ترتبط به.

ثانياً: الشبكة الدلالية الموسعة :

يمكننا من خلال دراسة الجانب العقلي أن ندرس القدرة الإبداعية للفظ على إنشاء شبكة موسعة من العلاقات الدلالية التي تربط بين هذا اللفظ، وبين باقي الألفاظ، بما يثيره في الذهن من علاقات وترابطات ربما تخفى على كثير منا .

ثالثاً: الجانب الإبداعي :

وهنا تبدو القدرة الإبداعية في إنشاء سلسلة من العلاقات الدلالية التي لا تنتهي من الإبداعات الجديدة في كل يوم وكل عصر؛ لأن القدرة الإبداعية في الإنسان لا تنتهي، والجانب المبدع في عقله لا يكف عن ابتكار الجديد في كل يوم باكتشاف روابط بين الأشياء المختلفة والمتباينة، تظهر في استعاراته المتجددة كأنه آلة إبداع استعارية.

رابعاً: القدرة الاستمرارية للاستعارة :

يجب دراسة قدرة الاستعارة على الشيوع والانتشار، وذلك من خلال متابعة هذه الاستعارة في المجتمعات المختلفة، ومدى قبولها في تلك المجتمعات لتحقيق عنصر الانتشار والاستمرار، وكيفية تحولها من استعارة جديدة إلى استعارة ميتة أو مبتذلة.

جوهر الإبداع في الاستعارة :

يقول مونر بيروسلى: (إن الاستعارة هي قصيدة مصغرة) [1] ويعلق بول ريكور على ذلك بقوله: (ومن هنا فالعلاقة بين المعنى الحرفي، والمعنى المجازي أشبه بنسخة مختصرة في داخل جملة واحدة من الدلالات المعقدة المتداخلة التي تسم العمل الأدبي ككل) ويقول: (حين يتحدث شكسبير عن الزمن شحاذا، فهو يعلمنا أن نرى في الزمن وكأنه شحاذ هنا يجتمع صنفان كانا متباعدين سابقا، وفي اجتماع البعداء هنا يكمن عمل المشابهة،

(١) علم الجمال، مونروبزيرسلى ،نيويورك ١٩٦٨ ص ١٣٤

وهكذا كان أرسطو مصيبا في هذه النظرة حين قال: إن الانغمار في الاستعارة المبتكرة يتطلب عينا لالتقاط المشابهة[1].

إن في اجتماع البعداء يكمن عمل المشابهة، وهو يتطلب عينا لاقطة – كما يقول أرسطو – ولهذا يمكن تصور الاستعارة من خلال هذين الشكلين :

شيء ما (أ) --> عين مبتكرة لاقطة

-- > نقطة الالتقاء بينهما ->(ج) المنتج استعارة جديدة

شيء ما (ب)--> عين مبتكرة لاقطة

الشكل (١)

المثلث الإبداعي للاستعارة :

يمكن تصور الاستعارة من خلال العملية الإبداعية بهذا الشكل :

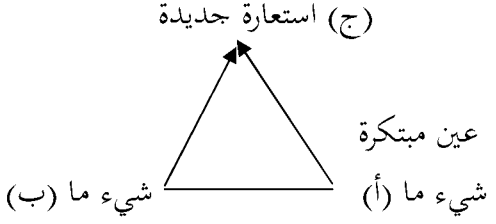

الشكل (٢)

لابد لوجود استعارة من وجود هذا المثلث الذي قاعدته تمثل الشيئين المتناقضين، والعين المبتكرة تصل بنا في قمة المثلث إلى الصورة الاستعارية، حيث (ج) المنتج الاستعاري، فالأشياء (أ) و (ب) موجودة سلفا قبل إبداع هذه الاستعارة بكل صفاتهما ثم تأتى العين المبتكرة لتلتقط نقطة التشابه بينهما .

دور الاستعارة في تنمية اللغة :

هل للاستعارة قيمة لغوية ؟ إن اللغة باعتبارها وسيلة تعبير وتواصل بين الناس تحتوى على مفردات تعبر عن أشياء تشير إليها حقيقة، وهو ما يعرف بالمعنى الحقيقي للفظة، ومن خلال هذه العلاقة يتمكن الناس من التواصل بينهم، ثم تكثر المعاني مع قلة

(١) نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى ٨٤، ٩٢

الألفاظ[1]، وهنا تلجأ اللغة إلى وسائل أخرى لتسد بها هذا العجز اللغوي في مفرداتها، وتلاحق هذا السيل الكبير المتلاحق من الأفكار والمعاني، فتدخل باب المجاز.

إن هذه العملية (تنمية اللغة من خلال الاستعارات) عملية معقدة لا تتم بهذه الصورة البسيطة التي ذكرناها، إننا في إطار الاستعارة كإحدى أبواب البلاغة التي تنمي اللغة نرى عمليات عقلية معقدة تتم حتى تُخرج لنا استعارة جديدة يقبلها المستمع، وتشيع في المجتمع، ثم يُنسى أنها استعارة، ونتعامل معها على أنها حقيقة لا كاستعارة منسية، بل إنها تدخل في معاجم هذه اللغة كإحدى دلالات هذه الكلمة .

ويحدثنا ريكور عن هذه العملية العقلية التي تتم بها الاستعارة قائلا (ومن هذا الوصف لعمل المشابهة في الأقوال الاستعارية تصدر مقابلة أخرى للتصور البلاغي المحض عن الاستعارة. وعلينا أن نتذكر أن المجاز في البلاغة القديمة كان يعني استبدالا بسيطا لكلمة أخرى، لكن الاستبدال عملية عقيمة في حين أن التوتر بين الألفاظ في الاستعارة الحية، أو بعبارة أدق، بين التأويلين اللذين يكون أحدهما حرفيا والآخر مجازيا يثير على مستوى الجملة كاملة خلقا حقيقيا للمعنى لا تنتبه البلاغة التقليدية إلا لآثاره ونتائجه، فهي لا تستطيع أن تفسر خلق المعنى، لكن في النظرية التي تذهب إلى وجود توتر في الاستعارة، كالتي نقابل بها هنا نظرية الاستبدال، تنبثق دلالة جديدة، تضم في داخلها الجملة كلها، بهذا المعنى تكون الاستعارة خلقا تلقائيا، وابتكارا دلاليا، لا مكان له في اللغة السائدة، ولا وجود له إلا لأنه اكتسب مسندا غير عادى أو غير متوقع، ولذلك تشبه الاستعارة حل لغز، أكثر مما تشبه اقترانا على المشابهة؛ لأنها تتكون أصلا من حل لغز التنافر الدلالي[2] ويقول أرسطو (إن الانغمار في الاستعارة المبتكرة يتطلب عينا لالتقاط المشابهات)[3].

هذا القول وسابقه يوضح أن الاستعارة لا تقوم على المشابهة فحسب، بل تحتاج إلى عين مبتكرة مبدعة، تقوم بتحويل التنافر بين الأشياء إلى تشابه، وتطابق عن طريق حل لغز التنافر بالتقاط نقطة الالتقاء بين المتنافرين والمتباعدين، وذلك بفرز السمات

---

(١) هذا القول يخالف ما قاله ابن رشيق القيروانى من أن الاستعارة لا تأتى لقلة الألفاظ فى اللغة ولكن لها مكان تفوق فيه الحقيقة ، انظر العمدة ص٢٤٢/١

(٢) نظرية التأويل وفائض المعنى ٩٣

(٣) فن الشعر لأرسطو ٤٢

الانتقائية في كلا الشيئين، والتقاط من بين تلك السمات ما يجعلهما متقاربين، يمكن أن يحل بعضهما مكان البعض .

وهذه العملية العقلية الإبداعية تبدأ من عقل المبتكر المبدع، وتنتهي عند عقل المستمع المدرك لنقطة الالتقاء، وهى السمة الانتقائية التي تجمع بينهما فيكررها، ويستخدمها، وتشيع هذه الاستعارة في هذا المجتمع؛ لأنها لقيت قبولا من الناس، وقد سماها ريكور الاستعارة الحية في قوله: (وهي استعارات الابتكار التي تكون فيها الاستجابة للتنافر فى الجملة توسيعا جديدا للمعنى، وإن صح القول بالتأكيد إن الاستعارات المبتدعة تتحول بالتكرار إلى استعارات ميتة، وفي مثل هذه الأحوال يتحول المعنى الممتد إلى جزء لا يتجزأ من مادة المعجم، تسهم في تعدد معاني الألفاظ المعينة التي تتضاعف معانيها اليومية بالنتيجة، فليس في القاموس استعارات حية... إن الاستعارة ليست تزويقا لفظيا للخطاب، بل لها أكثر من قيمة انفعالية، لأنها تعطينا معلومات جديدة، وبوجيز العبارة، تخبرنا الاستعارة شيئا جديدا عن الواقع[1].

وهذا القول الأخير لريكور يبدو حقيقيا في مجمله، حيث الاستعارة ليست تزويقا للكلام، بل من مهامها نقل الانفعال من الكاتب إلى المتلقي؛ فيجعله يرى الشمس تبكى أو تضحك، ولكنها لا تخبرنا عن شيء جديد عن الواقع الذي نعيش فيه فحسب، بل ترينا ما لم نر في الواقع رغم أنه أمام أعيننا من سنين، فالذي يقول لصاحبه: هذا فلان يمر، فيقول له صاحبه: أحلق له، نفض له، لقد رأى في هذا الشخص المار صفة، تجعله يوضع تحت الأقدام؛ مثل الشعر بعد الحلاقة، والغبار عندما يُثار، ثم يُلقى على الأرض، رغم أننا عشنا أجيالا نرى الشعر تاج المرأة، إن هذا المتكلم رأى في واقع الشعر ما لم نره من سنين، ولهذا فهو لم يخبرنا بجديد عن الواقع، وإنما ربط بين المتنافرين (الإنسان السيء والشعر الملقى على الأرض) فخلق نقطة التقاء بينهما، وهى الإهمال والوضع تحت الأقدام، وهذه العملية تمثل سر الإبداع في الاستعارة، بل هي أساس ديناميكية الاستعارة المتجددة في كل يوم، وكيف تتطور فتخلق معاني جديدة للكلمة ؟ تسجل بعد ذلك في المعجم، ثم نأتي لنعالج الأمر من آخره، وهو لماذا تتعدد دلالة الكلمة ؟ بل يجب علينا أن نبحث في أصل معنى الكلمة، وكيف انتقل إلى أشياء

---

(١) نظرية التأويل ٩٤

أخرى، قد يبدو للوهلة الأولى أنه لا علاقة بينهما، وكيف تحولت دلالة الكلمة وتشعبت وخلقت لنا شبكة دلالية موسعة .

الاستعارة الحية والاستعارة الميتة :

الاستعارة الحية هي استعارة الابتكار التي يكون فيها الاستجابة للتنافر في الجملة توسيعا جديدا للمعنى، وإن صح القول بالتأكيد إن الاستعارة المبتدعة تتحول بالتكرار إلى استعارات ميتة. وفي هذه الأحوال يتحول المعنى الممتد إلى جزء لا يتجزأ من مادة المعجم، تسهم في تعدد معاني الألفاظ المعنية التي تتضاعف معانيها اليومية، فليس في القاموس استعارات حية[1].

تميل الطبيعة البشرية إلى التجديد والابتكار الدائم ومن هنا تنشأ الحاجة إلى تجديد الاستعارة، فلا يكف المتكلم عن إبداع الجديد فيها من خياله، ثم يصبح جديد اليوم قديم الغد، فالفارق بين الاستعارة القديمة والاستعارة الجديدة هو فارق زمني، ولهذا نختلف مع ريكور في قوله: (بأن الاستعارات الميتة ليست باستعارات، إذا أردنا الدقة، وأعني بالاستعارات عبارات من طراز أرجل الكرسي أو لسان الباب)[2]؛ لأن الاستعارة الميتة كانت يوما استعارة جديدة، كما أن الجانب الاستعاري لازال قائما فيها، فلا يمكن أن يكون للكرسي أرجل، ولا للباب لسان إلا على سبيل الاستعارة .

من أسباب موت الاستعارة :

إن جزءا مهما من نسقنا التصوري قائم على الاستعارة، التي هي أساسا وسيلة من وسائل التي نقول بواسطتها الموضوعات والأوضاع، لذلك يجب ألّا نستغرب إذا وجدنا أن كثيرا من كلامنا استعارات ميتة، نسى مستعملوها أنها ناتجة عن ملاحظة علاقة من نوع معين، واستعارات جذرية لا نكاد نلاحظ جانبها الاستعاري، أو استعارات شعرية يحركها دافع إبداعي أو استعارات اضطرارية نلجأ إليها مكرهين .

أما الاستعارات الميتة فنجدها في بنيات مثل: نلت الجائزة، فلان أحمق، فاستعمال الجائزة استعارة ميتة؛ لأن فعل أجاز فلان فلانا، كان يدل في بداية الاستعمال على تمكين القيم على الماء الرجلَ من الماء حتى يجيزه... الملاحظ أن الانتقال من تمكين

---

(١) نظرية التأويل وفائض المعنى٩٣

(٢) المرجع السابق ٩٣

الرجل من الماء إلى تمكنه من الهدية تسوغه، جزئيا المشابهة، إلا أن تمكين جائزة الماء تلاشى بفعل تطور اللغة، واستقر تمكين الجائزة بمعنى الهدية والمكافأة[1].

هذا تأثير تطور اللغة، وعامل النسيان في تجدد الاستعارة واستمرارها، وتحولها إلى أصل مع نسيان الأصل، وبقاء الاستعارة على أنها الأصل، أو يظلان معا (الاستعارة مع الأصل) فينتج عن ذلك تعدد المعنى للكلمة الواحدة، ثم يتم نسيانها فتتحول إلى استعارة ميتة، يقول د. عبد الإله سليم (لننظر إلى الاستعارة نفسها من خلال النسق التصوري لمفهوم الوجود الإنساني، هناك استعارة تصويرية هي استعارة إنسان، ومفهومها أن الاستعارة تولد جديدة بواسطة ملاحظة علاقة، أو افتراضها، فتبدأ في النمو والانتشار والشهرة حتى تكبر، ثم تموت وتنسى أصولها الاستعارية... ولذلك يبدو أن قدر الاستعارة أن لا تخلد مهما كان جمالها، فمصيرها الموت عاجلا أم آجلا وقدر اللغات أن تكون مقبرة لاستعارات ميتة نسيت أصولها... إن عمر الاستعارة قد يطول ويستمر أجيالا، نتصور مسار الاستعارة كالتالي :

استعارة وليدة -----> استعارة عرفية -----> استعارة ميتة[2]

إنها عملية ديناميكية تبدأ من مبتكر له عين لاقطة يلاحظ تشابها أو تقاربا في إحدى السمات الانتقائية بين المتنافرين، فيستغل التوتر الحادث بين المتنافرين فيبدع صورة استعارية جديدة تشيع وتنتشر، ثم تبتذل وتموت، ويصبح السر في وجود الاستعارة وتجددها وتطوها؛ هو الإنسان المبدع المبتكر، وهو السبب في موتها لأنه ابن أغيار، يمل التكرار، ويرغب في التجديد، فيبدع في كل يوم الجديد والجديد.

كيف تبقى الاستعارة ؟

يقول ريكور (لعل عمل الاستعارة لا يكتمل، ولا يتناسب على الإطلاق كوسيلة للتعبير عن الزمانية المختلفة للرموز، أو ما يمكن لنا أن نسميه إصرارها على البقاء، إذا لم تنقذ الاستعارة أنفسها من الاضمحلال التام عن طريق رص صفوفها لتحقيق تبادل التأثير بين الإشارات، كل استعارة تستدعى الأخرى، وكل واحدة تبقى حية بالحفاظ على قدرتها في استحثاث الشبكة بأسرها[3] هذا يعنى أن على الاستعارات أن ترتبط مع

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ٦٦
(٢) المرجع السابق ٧١
(٣) نظرية التأويل ١٠٩

بعضها في صورة شبكة من العلاقات يستدعى بعضها بعضا، ويقول (هكذا يطلق على الله في التراث العبري اسم الملك، والأب، والزوج، والمولى، والراعي، والقاضي، كما يطلق عليه الصخرة والحصن والمخلص والعبد المعذب. فتولد الشبكة ما يمكننا أن نسميه باستعارات الجذور root metaphors، الاستعارات التي لديها القوة من جهة لجمع الاستعارات الجزئية المستمدة من مختلف ميادين تجربتنا وتضفى عليها بالتالي نوعا من التوازن. أعنى عددا غير محدود من التأويلات الضمنية على المستوى المفهومي فاستعارات الجذور تجمع وتفرق. تجمع الصور التابعة معا، وتفرق المفاهيم على مستوى أعلى إنها الاستعارات المهيمنة القادرة على توليد وتنظيم شبكة نافعة كنقطة اتصال بين المستوى الرمزي بارتقائه البطيء، والمستوى الاستعاري السريع الزوال[1].

إن استعارات الجذور التي يتحدث عنها ريكور هي استعارات ارتبطت بمفاهيم متجذرة في الصور الذهنية للبشر، ولهذا فهي مرتبطة معا، وقادرة على استدعاء بعضها لمجرد ذكر بعضها الآخر، فكلمة الله تستدعى كل هذه المعاني أو الصفات المرتبطة به، فهو الملك، وهو القاضي، وهو الراعي... كما عرف هؤلاء القوم (اليهود) من خلال تجاربهم الشخصية معه، فالتجربة هي التي تضخ تلك المعاني، فإذا ذُكر أحد هذه الألفاظ استدعى من خلال الشبكة الذهنية باقي الصور الاستعارية والصفات المستقرة في الذهن، والمتكونة نتيجة التجربة، وهذا الترابط بين الصور الاستعارية يجعلها ثابتة مستقرة في الذهن لارتباطها بالتجربة، والتجربة الجديدة هي التي تجعل الصورة حديثة ومتجددة .

الاستعارة القرآنية بين الموت والحياة :

إن القرآن الكريم لغة لكل عصر يسمعها كل إنسان فيرى فيها الجديد والجديد، ولهذا عالج مشكلة موت الاستعارة بالرجوع إلى أسباب موتها، وهو اختلاف الأجيال المتتالية في تصورها للأشياء، فكل جيل يرفض رؤية من سبقه، ويرى الكمال في تصوره هو للأشياء، بل يضيف الجديد إلى من سبقه، فيلمح في الشيء صفة لم يرها الجيل السابق عليه ضمن الصفات الانتفائية لهذا الشيء، هذه الصفة تمحو التنافر الذي كان بين هذا الشيء وشيء آخر، فتأتي الاستعارة لتخلق التقارب بينهما، وتُبَنْيِن تصورا

(١) المرجع السابق ١٠٩

جديدا عن الشيء السابق، من خلال هذا الشيء (أي فهم مجال من خلال مجال آخر كما يقول لايكوف) ثم يكتشف الجيل التالي له صفة أخرى، وتتابع الأجيال في إدراكها للأشياء، وقد تتغير هذه الصفات أو تتبدل، وهنا يجب محو هذه الصفة من مجمل الصفات الانتقائية للشيء لتحل محلها صفة أخرى .

لهذا اعتمد الكتاب الكريم في استعاراته على صفات ثابتة في الشيء لا تتبدل عبر الأجيال، بل تظل ثابتة متوارثة، وقد بُنْيت تلك الصفات في التصور الذهني لكل البشر، وهذا هو سر ثبات الاستعارة القرآنية، وتجددها رغم تعاقب الأجيال التي تناولته بالقراءة والتفسير.

الإنسان يُكوّن صوره الذهنية من البيئة التي يعيش فيها، وأشياء هذه البيئة، ومكوناتها، ومخلوقاتها، وسلوكيات أصحابها، ولا يمكن عزل هذه الأمور عن مجال إدراكه، وتعاملاته، ويظل عبدا لها في إدراكه وفهمه لأموره الأخرى، ولهذا إذا أردنا إدخال مفاهيم جديدة إلى تصور هذا الإنسان لابد أن نضع هذه الأمور في الحسبان، فنسأل: أين يعيش ؟ وكيف يمارس حياته ؟ وبالجملة ما هي بيئته ؟

هذا ما فعله النص القرآني في استعاراته لتظل ثابتة متجددة :

أولاً: اعتمد على صفات ثابتة لا تتغير في الشيء المستعار،كالاستعارة من الظواهر الكونية أوصفات ثابتة في المخلوقات والجمادات والنباتات التي يعرفها كل عربي.

ثانياً: الاستعارة من صور ذهنية ثابتة، واضحة في عقل كل عربي، ومرتبطة ببيئته، وتجاربه الحياتية، وتوظيفها كوسيلة توضيح وبناء مفاهيم عن أشياء وأفكار جديدة.

ثالثاً: المستعار له تتحول استعارته إلى صفة ثابتة فيه لا تتغير؛ لأن النص القرآني يصدر حكما ثابتا عليه لا يمكن أن يبدل أو يتغير.

رابعاً: الهدف من أغلب الاستعارات إصدار أحكام أبدية تنطبق على قطاعات كبيرة ممن تشملهم هذه الاستعارات، لا يتغير على مدى الدهر.

خامساً: الغاية من الاستعارات القرآنية غاية تفهيمية، وبناء بنية تصويرية لأشياء جديدة فهي استعارات مفهومية، وليست جمالية فحسب، حيث تأتي لغرض أساسي، هو تفهيمنا شيئا لا نعرفه، أو لم نره من قبل، وعلينا أن نتخيله في حدود ما لدينا من طاقة ذهنية، ووسائل بيئية محيطة بنا، ونتعايش معه، بل نعدل من سلوكنا ليتوافق مع

هذا الشيء الذي نتخيله، فنفعل ما يقربنا إليه، ونجتنب ما يبعدنا عنه، وهذا يدخلها ضمن نظرية الاستعارة المفهومية التي نادى بها لايكوف، حيث تصبح (الاستعارة أداة مَفهمَة وتمثيل وتصور يعم كل مظاهر الفكر بما في ذلك المفاهيم المجردة والمتصلة بالمجالات الأساسية من قبيل الزمن، والأوضاع، والمكان، والعلاقات، والأحداث، والتغيرات، والجعل، وما إليها[1] لهذا (فالاستعارة ظاهرة مركزية غالبة في دلالة الكلام العادي اليومي، وهي جزء من الفكر من حيث مثلت أداة في تصور العالم والأشياء وتمثلها في جميع مظاهرها[2].

هذه الأسباب معا تجعل الاستعارة القرآنية متجددة متطورة، رغم توقف الوحي، ذلك أنها إلى جانب جمعها لهذه الأسباب يُضاف إليها سبب لم نعرفه فيما سبق، بل نعرف بعضا منه، وسنظل نعرف بعضا منه؛ حتى نموت ويرث الله الأرض ومن عليها، ولا ينتهي هذا الشيء، وهو ما في القرآن من إعجاز علمي، نكتشف منه في كل يوم جديد، ولا ينتهي هذا الإعجاز، هذا الإعجاز الذي يكشف لنا عن سر الاستعارات المفهومية التي لم نفهمها حتى الآن؛ لأن سر إعجاز هذا العلمي لم يكتشف بعد.

وشيء آخر نراه في هذه الاستعارات وهو تحولها إلى مصدر لاستعارات جديدة، يستلهمها الأديب والعامي – كما سنرى – منها، وهو مستوى أعلى من كونها استعارة حية دائما، بل هي مصدر لاستعارات جديدة،مع بقاء الصورة الأولى تعمل.

نماذج تطبيقية لعدم موت الاستعارة القرآنية :

نحاول أن نرى مدى صدق المعطيات السابقة على بعض الاستعارات القرآنية:

أولاً: الاستعارة من حيوانات البيئة :

١- يقول الحق سبحانه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً**﴾ [العنكبوت: آية ٤١] استعار الحق صفة الضعف التي في بيت العنكبوت الذي سيظل يحملها حتى تقوم الساعة، ليصور بها ضعف الذين اتخذوا من دون الله أولياء، فيصبح بيت العنكبوت مجال المصدر، ويصبح الذين اتخذوا من دون الله أولياء مجال الهدف.

---

(١) نظريات لسانية عرفانية د. الأزهر الزناد ، دار محمد على ، تونس ، ط الأولى ٢٠١٠ص١٤٢

(٢) المرجع السابق ص١٤٢

نطبق الآن العناصر السابقة :

أ- اعتمد النص على صفة ثباته في الشيء المستعار، وهى صفة الضعف في بيت العنكبوت، وهى ثابتة لا تتغير .

ب- الاستعارة من صورة ذهنية ثابتة وواضحة في بيئة العربي، وهى هنا صورة بيت العنكبوت بكل خصائصها من ضعف ووهن يراها في بيئته كل يوم .

ت- المستعار له تكون هذه صفته الثابتة، فالذين اتخذوا من دونه أولياء دائما ضعفاء.

ث- الآية تصدر حكما عاما وثابتا بالضعف على كل من اتخذ من دون الله أولياء لا يتغير على مدى الدهر كله .

ج- الغاية من الاستعارة تفهيمية تجسيدية: فهي تجسد المعنوي في صورة المادي، فما كان لنا أن نتخيل مدى ضعف الذين اتخذوا من دون الله أولياء، إلا بعد تجسيدها في صورة مادية هي بيت العنكبوت، ولا يوجد أفضل ولا أوضح من صورة بيت العنكبوت ليبين لنا ضعف هؤلاء القوم.

مجال المصدر(بيت العنكبوت) --> مجال الهدف (الذين اتخذوا من دونه أولياء)

وبهذا يتحول بيت العنكبوت في الصورة الذهنية للبشر إلى نموذج للضعف في كل شيء، ويدخل بهذه الصفة إلى البنية التصورية لهم، ويظل كذلك لا يتغير أبدا، ثم تصبح هذه الصورة الاستعارية مصدرا لاستعارات جديدة مأخوذة منها، يستلهمها الأديب والعامي في كلامهما، فيقولون عن بيت فلان: بيت العنكبوت، ويفهم من ذلك مدى ضعف هذا البيت وغيرها من العبارات التي تعتمد على الصورة الذهنية لبيت العنكبوت وخصائصه المختلفة بل يصفون الأشياء المعنوية الضعيفة ببيت العنكبوت .

٢- قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾ [الجمعة: آية ٥] خلق الله تعالى الحمير والبغال لنركبها وتحمل أثقالنا من مكان إلى آخر وزينة لنا، كل هذه من خصائص هذه الحيوانات، وهى خصائص ثابتة فيهم، ولذلك استعار الحق منها صفة (الحمل) وبطبيعة خلقهم أنهم يحملون الأشياء فقط دون السؤال عما يحملون، وهى صفات ثابتة في هذه المخلوقات، بُنِيتْ الصورة الذهنية عنهم أنهم يحملون الأشياء فقط في عقول البشر، ثم تحولت هذه الصورة في البنية

التصورية للبشر إلى نموذج لمن يحمل الأشياء ولا يعرف ما فيها، ثم استعارها الحق ليصور بها صفة ثابتة أيضا في من حُمّلوا التوراة؛ ولا يدركون ما فيها من هدي ونور، ورغم تطور الحياة وتعاقب الأجيال؛ مازال هذا الحيوان يحمل تلك الصفة، التي تطلق كذلك على كل من سلك هذا المسلك، وتظل هذه الاستعارة متجددة، في كل زمان ومكان فمن منا يقبل أن يوصف بأنه حمار ؟ مع ما في الحمار صفات أخرى،كالقدرة على حمل الأعباء الثقيلة حتى أنهم قالوا: فلان حمار شغل، لكن تظل هذه الصفة (الغباء) غالبة على صفاته الأخرى .

وتظل صفة الغباء في هؤلاء القوم الذين حُملوا التوراة ولم يعملوا بها حكما دائما ثابتا فيهم، رغم مرور الزمان عليهم، ونحن لا نجد فيما خلق الله من أشياء ما ينقل لنا هذه الفكرة، ويصور لنا مدى غباء هؤلاء القوم أفضل من هذا المخلوق (الحمار) ليُفهمنا هذه الصورة، فهي استعارة مفهومية مرتبطة بتلك البيئة وحيواناتها .

مجال المصدر (الحمار) ----> مجال الهدف (الذين حُملوا التوراة ولم يحملوها)

ثم تتحول هذه الصورة الذهنية عن الحمار لتسود على خصائصه المختلفة، مثل: القدرة على الحمل، والصبر على السفر، فيتحول الحمار إلى رمز للغباء عند كل أفراد هذا المجتمع، يستلهمون منه هذا المعنى رغم التطور الدلالي في هذا المعنى، ليدل على خصائص أخرى في هذا الحيوان، مثل الصبر على العمل، فيقولون: فلان حمار شغل، أي لديه قدرة كبيرة على العمل، ولكن تبقى الصورة الأصلية، وهى كلمة فلان حمار = فلان غبي، بدون إضافة كلمة أخرى إليها، مما يدل على أنها أصل المعنى، والعبارة الثانية متطور عنها، ولهذا أضفنا إليها كلمة أخرى للتمييز بين المعنيين :

فلان (حمار) = فلان غبي------> فلان (حمار شغل) = يتحمل العمل الشاق

ثم يُولد المتكلم معنى ساخرا منها، نتيجة للإحباط واليأس، فيصف نفسه قائلا: أنا حمار، يقصد أنه مخدوع أو مضلل، ويظل المعنى الأصلي باقيا فيها، أي الغباء .

ثانياً: الاستعارة من جمادات البيئة :

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: آية ٧٤]، وهنا نرى صورة مأخوذة من جمادات البيئة، لا من حيواناتها، وهنا اختار الحجارة لما بها من صفة ثابتة نقلت لنا صفة معنوية لدى هؤلاء القوم (بني

إسرائيل) هي قسوة قلوبهم، وهي صفة ثابتة في كل من الحجارة وهؤلاء القوم، في كل زمان ومكان، كحكم أبدي عام عليهما، وجاءت الصورة الذهنية المادية عن الحجارة لتُبْنين لنا الصورة ذهنية في بنيتنا التصورية عن قسوة قلوبهم، وتفهمنا الصورة المعنوية .

مجال المصدر (الحجارة) ----> مجال الهدف (قلوب اليهود)

ثم تتحول تلك الصورة الذهنية التي بُنينت في عقول القوم عن قسوة الحجارة إلى نموذج للقسوة يُستلهم منه تلك الصورة، فيقال: فلان قلبه حجر، أي قاسى القلب .

بل إن هذه الصفة في هذا الحجر تتطور لتبقى بتحولها من الدلالة على القسوة في القلوب إلى قسوة في العقول، أي الجمود في الفكر، فنتجه بتلك الصفة إلى موصوف آخر، وهو العقول في تحجرها، فهي ثابتة على حالها دون تغيير، فيقولون: فلان متحجر الفكر، أي ثابت عند فكره القديم، ويظل بذلك الحجر مصدر هذه الاستعارات الجديدة، لما له من خصائص ثابتة، استعارها القرآن من تلك البيئة، وتظل خالدة في الشيء، تنتقل إلى مجالات أخرى، وتصبح ذات وظيفة إفهامية ضمن الاستعارة المفهومية.

ثالثاً: الاستعارة من عمليات حياتية ثابتة :

البيع والشراء :

وهي عمليات حياتية تقوم عليها حياة البشر، يمارسها كل إنسان في كل يوم، وفي كل مكان في العالم، لا يملها البشر، بل يجدون فيها لذة كبيرة لدى البائع والمشترى، بل إنه يقدر الأشياء، والأشخاص حسب هذه العملية؛ ما بين مكسب وخسارة، فاستعار الحق تبارك وتعالى هذا المجال الخصب (السوق) بكل مفرداته وأشخاصه وخصائصه التي باتت مستقرة في البنية التصورية للبشر، ليعبر عن سوق آخر، وهو سوق الآخرة، وبذلك تتحقق صفة المفهومية في الاستعارة كما قال لايكوف، حيث نفهم مجالا من خلال مجال آخر، فمجال الآخرة سوق أيضا، لا يختلف عن سوق الدنيا إلا في نوع السلعة، وكما قال الرسول الكريم: ألا إن سلعة الله غالية؛ ألا إن سلعة الله الجنة، هذه السلعة لم يرها الإنسان، فهو في شوق من خلال عرض النص القرآني لها، وتظل متجددة نتيجة تجدد حب الإنسان للبيع والشراء والمكسب والربح.

وهذه بعض الآيات التي جاء فيه البيع والشراء والسلع والمشترى:

﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾ [التوبة: آية ١١١]، ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾ [البقرة: آية ١٦]، ﴿**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: آية ١٠٢].

مجال المصدر (السوق) ------> مجال الهدف (الجنة والنار)

لقد أصبحت كلمتا البيع والشراء مصدر إلهام لكل البشر في كل عصر، بدلا من أن تموت وتُبتذل، فأصبحنا نقول في عاميتنا: فلان بيبيع علينا الكلام، وفلان باع الدنيا وما فيها، وفلان اشترى رأسه من هذا الموضوع، أي أهمله ليستريح منه.

رابعاً: الاستعارة من عمليات حيوية :

والمقصود بالعمليات الحيوية العمليات التي تتم في الكائن الحي (نبات – حيوان – إنسان) ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ولهذا تظل مصدر إلهام للناس جميعا .

١– في الإنسان: استعار الحق عملية تذوق الطعام ليعبر بها عن معان كثيرة، وعملية يصعب علينا أن نفهمها أو نتصورها إلا من خلال هذا المجال (الطعام) :

أ) قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: آية ١٨٥]، قوله ذائقة يعني أن النفس لا تموت، فالميت لا يتذوق، فما كان لنا أن نفهم عدم موت النفس إلا من خلال استعارة عملية حيوية أخرى هي التذوق، فهنا نفهم مجالا من خلال مجال آخر، فنفهم من خلال عملية التذوق كيف تتجرع النفس آلام الموت بمنتهى الإدراك والشعور بما يحدث حولها،كما يشعر المتذوق لذة الطعام أو الشراب الذي يُقدم إليه بخصائصه، ولهذا الرازي قال: عُلم عدم موت النفس من لفظ ذائقة.

ب) قال تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ [الدخان: آية ٤٩]، يقصد ذق العذاب، فيتحول العذاب إلى طعام يتذوقه الإنسان، ولا توجد كلمة تجمع بين صفتين سواها، حيث جُمع بين الوصف والسخرية، فهي تصف تجرعه للعذاب بعملية حيوية، وهى التذوق مع السخرية منه. وتظل كلمة (تذوق) ملهمة لنا لاستخراج استعارات جديدة كل يوم، فنقول: سأذيقه من العذاب ألوانا، أو نقول: ذق نتيجة أفعالك (للسخرية).

٢- في الحيوان: قال تعالى: ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾ [الأعراف: آية ١٧٦] فقد استعار الحق من العملية الحيوية التي تتم عند هذا الحيوان، التي تعد أساسية في سلوكه وأساسية لحياته ليعبر بها عن سلوك هذا الإنسان، فلا يتغير سلوك هذا الفرد، ولا يتغير سلوك هذا الحيوان، فتظل هذه الاستعارة خالدة، معبرة عن هذه الصفة فيهما، بل إنها تصبح مصدرا لصور جديدة منتزعة منها، فيقال عن شخص سيء: اتركه يلهث، ولا يوجد أسوأ من هذه الصورة (الكلب وهو يلهث) لتعبر عن سلوك هذا الشخص.

٣- في النبات: مثّل الله للحياة الدنيا بدورة حياة النبات، قال تعالى: ﴿**مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾ [الكهف: آية ٤٥] فلو قابلنا بين دورة حياة الإنسان التي لا نراها كاملة، وبين حياة النبات التي تكتمل وتنتهي في عام في أغلب الزرع، لوجدنا التطابق التام بينهما،كما أنها ترسم صورة لبداية حياة النبات ومراحل نموه ونهايته، مقابلة بحياة الإنسان، وكلاهما لا يغير مراحل حياته قط .

خامساً: الجمع بين صفتين :

قد تقوم الاستعارة بالجمع بين صفتين في شيئ واحد، فإذا شاعت صفة واشترك فيها شيء آخر؛ ظلت الثانية تعمل، فتظل الاستعارة متجددة معتمدة على الصفة الثانية.

قال تعالى: ﴿**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**﴾ [التوبة: آية ٥٧]، يصور الحق حال أصحاب النار، وسعيهم للخروج منها بكلمة (يجمحون) كالفرس الجامح، وهو الفرس الفار من صاحبه، في سرعته مع خوفه من صاحبه، فصور سرعة خروجهم بهذا الفرس الجامح، وهنا جمع بين صفتين السرعة والخوف، فلو وجدنا ما هو أسرع من الفرس كالطائرة، فلن نجد في الطائرة الصفة الثانية، أي صفة الخوف، فالطائرة أسرع من الفرس، ولكنها لا تخاف مثله، ولهذا تظل كلمة يجمحون حاملة للصفتين، وتظل الاستعارة متجددة مصورة لشعور لا يمكن لكلمة أخرى أن تصوره، وهى أيضا خير من يصور حال هؤلاء القوم، وهم يحاولون الفرار من النار بسرعة شديدة مع خوف شديد كما في الفرس الجامح، وبذلك نكون قد فهمنا مجالا من خلال مجال آخر .

مجال المصدر (الفرس الجامح) --> مجال الهدف (فرار أصحاب النار منها)

بل إن هذه الاستعارة تصبح مصدر إلهام للناس جميعا (أدباء وعاميين) فنقول: فلان كالفرس الجامح ، وفلان جمح به الخيال ، لنصور بها حالة الإرتباك والتيه الذى يعيش فيه هذا الشخص .

كل هذه الأمثلة وغيرها تشير إلى عوامل ثبات الاستعارة القرآنية، وعدم ابتذالها، وهذا الأمر يحتاج من الباحثين إلى دراسة مستقلة، تشمل آيات القرآن الكريم كله، وستضيف هذه الدراسة عناصر جديدة إلى ما ذكرته تؤكد حيوية هذا النص، وقدرته على التجديد .

الفصل الثالث

نظريات فى تحليل الاستعارة

تناولت كثير من النظريات الحديثة قضية الاستعارة من جوانب كثيرة غير منظورة لم تتعرض لها النظرية التقليدية، من هنا تبدو لنا قيمة النظريات الحديثة، فهي تفتح لنا أبواب إدراك جديدة لجوانب القضية، ولهذا يجب أن نلم بها، ونأخذ منها ما يخدم تحليلنا للاستعارات القرآنية .

النظرية الأولى: نظرية النموذج الشبكي الدلالي network model

إن الكلمة كلفظة مفردة تملك القدرة على أن تضخ عددا لا نهائيا من المعاني، والصور الاستعارية المرتبطة بها، ولهذا يمثل المعنى الأساسي للكلمة القاعدة التي ينطلق منها فيض الدلالات المختلفة عبر الأماكن والأزمنة، فهي تعني كذا في مكان كذا، وفي زمن كذا، فيأتي كل جيل وكل مكان ليضع بصمته على الدلالة الجديدة لهذه الكلمة؛ فتنشأ نتيجة لهذه شبكة دلالية موسعة لهذه الكلمة .

يرى د. عبد الإله سليم أن هذا النوع من التطور الدلالي يرجع إلى قدرة المبدع يقول: (إن المبدع يعتمد على نفس الإمكانات الواردة لدى جميع الناس بخصوص آليات الربط بواسطة المشابهة، إلا أن ما يميزه هو قدرته الاستثنائية على خلق كثافة أقوى، فإذا كان الناس جميعا يدركون وينتجون بسهولة ترابطات مطردة في النسق كالترابط بين الغبي والحمار والجمال والغزال.. الخ، فإن المبدع يستطيع أن يكثف من قدرة الربط هاته فيربط، مثلا، بين الأسنة الزرقاء وأنياب الغول كما فعل امرؤ القيس، فاستنكرت فعله الجماعة لعدم إدراكها طبيعية المشابهة[1].

هذه القدرة هي ما سميتُها آنفا بالعين اللاقطة التي تلتقط المشابهة الحادثة بين الأشياء فتربط بينها على أساس من المشابهة، وهذه العين قد تكون عين شاعر، أو كاتب، أو إنسان أمي لا يعرف القراءة أو الكتابة، ولكن لديه القدرة على الإبداع والملاحظة.

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية١١١

أسباب الترابط :

يرى سوبلان soublin أن الموضوعات لها من السمات ما هو إيجابي تدرك من خلاله الترابطات بسرعة، بحيث يكون الموضوع قابلا للربط، والتعالق مع موضوعات أخرى، ولها من السمات ما هو سلبي يميز الموضوع، ويخصصه بصرامة كبيرة، ولها من السمات ما هو محايد لا نعرف هل هو منشط مقاربة، أو تخصيص صارم، هذا النوع من السمات هو الذي يستغله أصحاب القدرة الاستثنائية على ملاحظات الترابطات، بل تخليها[1].

إن هذه السمات هي مجال الإبداع عند أصحاب هذه القدرة من مختلف طوائف الناس، وذلك من خلال الاستعارة الشعرية و (هي كل استعارة اكتسبت طابعا جميلا، تبدو عليه ميزة التفنن، والإبداع سواء أتعلق الأمر بقصيدة، أم حكاية، أم ملحون، أم كلام الفلاسفة والحكماء) أو كلام الرجل العادي (إنه نوع من الاستعارات يبدو كأنه تشويش على النسق المعرفي، إنه نوع ينحو فى اتجاه بناء تصورات جديدة، وخلق ترابطات غير مسبوقة بين الموضوعات والأوضاع، يستطيع هذا النوع من الاستعارات إن يلاحظ المشابهة بين موضوعات مختلفة تماما).

كيف تتم هذه العملية ؟

تخزن الكلمات أو بالأحرى التصورات داخل الذاكرة الدلالية بواسطة شبكات تتكون من عُجر وترابطات، أما العُجر فتمثل التصورات، وأما الروابط فتحدد علاقتين :

أ- علاقة تحديد نمثل لها بـ : [أ هى ب]

ب- علاقة خصائص نمثل لها بـ : [أ لها سمة س]

إذا أخذنا مثلا، العُجرة تفاحة، فإنها تربط بواسطة خط التحديد بالفاكهة، وبواسطة خط الخصائص بالسمات/ + مغذية/ و/ + قابلة للأكل/ و/+ حمراء ... ويمكن اختصار الشبكة التصورية للتفاحة، حسب الأعمال المعرفية كالتالي :

---

(١) soubli,f :١٩٧٩ ,presentation : problems de la metaphore, lanjajes ٥٤

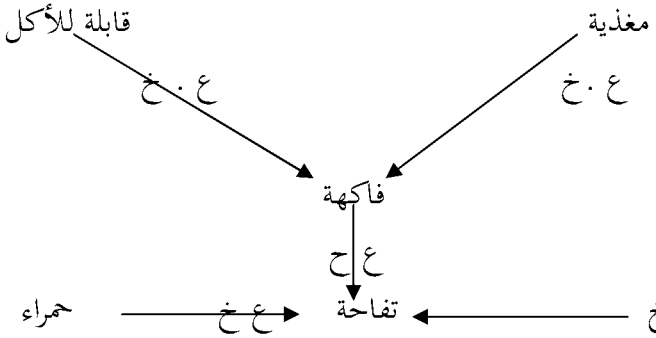

حيث ع.ح تعنى علاقة تحديد ، وع.خ تعنى علاقة خصائص .

يمكن تطوير النموذج الشبكي ليصبح قادرا على استقبال ترابطات جديدة، لذلك فإن الخطوط الرابطة ستصبح غير نهائية، ثم إنها بالنسبة إلينا ثلاثة أنواع :

أ) خطوط قصيرة تبرز التحديدات والخصائص الأكثر بروزا في تصور ما .

ب) خطوط طويلة تشير إلى ترابطات ممكنة بين الموضوعات والأوضاع .

ج) خطوط متقطعة وغير مملوءة تترك المجال مفتوحا أمام اجتهادات الناس وقدراتهم العاطفية والتخيلية .

يستطيع النموذج السابق أن يستقبل عُجرا مثل (آدم) إذ يعرف الناس قصة أكل التفاحة والنزول إلى العالم السفلي، وأن يستقبل عجرا أخرى مثل (النهد) و (الخد) ما دام المبدعون كثيرا ما ربطوا بين التفاحة وهذين الموضوعين...

إن الاستعارة حسب هذا التحليل وسيط فعّال بين الإنسان وتطوير أنساقه التصورية ومعارفه وثقافته، وذلك بواسطة تعميم المعلوم على المجهول، وإسقاط المشهور على الجديد[1].

إن هذه العملية التي تكون فيها الاستعارة وسيط فعال بين عقل الإنسان، وواقعه وثقافته ومعارفه؛ تتم في سرعة البرق، حيث يتم تحليل تلك المعطيات، والوصول إلى نتائج تقوم عليها أفعال هي سلوك المرء تجاه الأحداث، ولكن المرء لا يشعر بهذه السرعة لأنه هو محور الحدث، ولكن يمكن متابعة هذا من خلال الآخرين؛ وهنا تبدو الفروق الفردية بين الناس في فهم الأحداث، ورد فعلهم تجاهها، وهنا نقول: إن فلانا لم يفهم العبارة، أولم يستوعب الفكرة، كفروق فردية، يجب أن نضعها في الحسبان .

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ١١٣،١١٢،١١١

إن عملية إسقاط المشهور على الجديد، وتعميم المعلوم على المجهول (الإسقاط والتعميم) هي دعائم الاستعارة والعناصر الفعالة لتحقيقها، ولذا يجب أن تدرس مستقلة من خلال التطبيقات الاستعارية القرآنية التي توضح كيف نفهم الدين الجديد بقواعده وتعاليمه وقضاياه من خلال عملية الإسقاط ؟ وكيف نبني في الذهن تصورا للمجهول عن طريق المعلوم فنرى الجنة والنار والعذاب والنعيم من خلال أشياء نعرفها

قيمة النظرية: تبدو قيمة هذه النظرية من خلال النقاط الآتية :

١- دينامية البنية التصورية :

النموذج الشبكي يعكس بنية التصورات فى ديناميتها، فهي ليست ثابتة ونهائية، بل هي في تطور مستمر تأتى كل يوم بجديد؛ لأنها تخضع لإرادة مستعملي اللغة الذين يغيرونها عبر التاريخ اعتمادا على معطيات تجريبية وثقافية، هي من يطور ويغير.

نموذج تطبيقي :

شعر الرأس يعده الناس عنصرا من عناصر جمال المرأة، بل هو تاج على رأسها، ومصدر فخرها، ويظل كذلك حتى يأتي من يرى فيه جانبا لم يره غيره، وهو أنه يُحلق، ثم يُلقى على الأرض ويُهمل، وفي إطار العملية الدينامية للاستعارة يتم تحول استعارة المدح إلى ذم من خلال عملية حلاقة الشعر، فيقولون: فلان هذا احلق له، أي أهمله، فتتحول عملية الحلاقة من تزيين الشعر إلى إهمال الشخص، وهنا تنمو الدلالة وتتطور، وليس هذا هو التطور النهائي لهذه الاستعارة، بل هناك الجديد الذي يأتي وسيأتي منها، فهي ليست ثابتة ولانهائية، مادام هناك مبدعون.

٢- تقلص النماذج الشبكية :

يقول د. عبد الإله سليم (إن النظر إلى النماذج الشبكية من هذه الزاوية يقلص من تعددها ولا نهايتها) [(١)]، ولكن هذا القول فيه نظر، حيث النظر إلى النماذج الشبكية من هذه الزاوية يحدد مستوياتها الدلالية بناء على علاقات التحديد وعلاقات الخصائص، ولكن يظل الباب مفتوحا أمام علاقات الإبداع، فما نراه محددا من خلال السمات الانتقائية للشيء يظل مفتوحا للمبدعين في كل زمان ومكان؛ للربط بين تلك السمات الخاصة بهذا الشيء، وبأشياء أخرى لم نرها فيه من قبل رغم وجودها فيه .

---

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ١١٣

لكن يمكن قبول كلام د. عبد الإله على أن النموذج الشبكي يمنع تشتت الاستعارة، ويدخلها في أنساق تصورية منظمة، حيث يرتب الفكرة بتحديد نوع العلاقات (تحديد . تخصيص . إبداع) ولكنه لا يمنع بذلك تعددها وتجددها ولا نهائيتها، فهي موجودة دائما ومتطورة بصورة لا نهائية .

نموذج تطبيقي :

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ [الأنبياء: آية ١٠٤] فيشير إلى أنه يطوى السماء كما نطوى الكتب، ثم نجد مَن استعار هذه الصورة لشيء آخر، كما في كتاب أخبار سيبويه المصري نجد عبارة (هذا سيبويه فاطوه) أي أهمله، فتتحول الكلمة من الدلالة على الطي أي إغلاق الكتب إلى الإهمال، وعندما تتوالى العصور يُنسى هذا التطور، لتأتي كلمة أخرى لتدل على هذا المعنى، وتذهب كلمة طوى إلى اتجاه آخر لتدل على معنى جديد، ولهذا لا يمكن أن نضع حدودا لمعاني الكلمة، بل تظل تتغير، وتتجدد بصورة لا نهائية، مع بقاء المعنى الأصلي كجذر يرتبط بكل فروع الشجرة من جهات متعددة، ويضخ لنا المعاني في كل عصر، وتظل الاستعارة الباعث لهذه المعاني والمولد لها .

٣. الشبكة التصويرية :

هي شبكة من التصورات المترابطة في ذهن المتكلم، حيث تَسْتدعي كلمةُ من خلال تصور ما . بالاستعانة بتلك الشبكة . عدة تصورات ثابتة في ذهنه في إطار نسق الشبكة التصورية، فيأتي دور الاستعارة كوسيط فعّال بين الإنسان وتطور أنساقه التصويرية ومعارفه وتجاربه وثقافته ، وذلك بواسطة تعميم المعلوم على المجهول، وإسقاط المشهور على الجديد، وبذلك تتطور أنساقه التصورية حول هذا الشيء .

بل إن هذه الشبكة – كما يرى بول ريكور – تعمل بذلك على بقاء الاستعارة وتجددها، يقول (إذ لم تنقذ الاستعارات أنفسها من الاضمحلال التام عن طريق رص صفوفها لتحقيق تبادل التأثير بين الإشارات، كل استعارة تستدعي الأخرى، وكل واحدة تبقى حية بالحفاظ على قدرتها في استحثاث الشبكة بأسرها)[1] هذا الاستدعاء يقوم على ترابط الاستعارات وتعاونها في بناء صورة أكبر في الذهن يستدعى بعضها بعضا.

---

(١) نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى ١٠٩

فما نعرفه عن شعر الرأس من جمال يضاف إليه في تصورنا أنه كم مهمل، وبذلك تنفتح الصورة على جانب جديد من خلال هذه الاستعارة، بل يتم توظيفها في سياقات جديدة مثل (أنت بتحلق لي) أي أنت تهملني، وبهذا يتم بناء تصور جديد لهذه الكلمة في الشبكة التصورية لدينا، ينمو ويتسع كل يوم فتتسع الشبكة التصورية معه.

٤. خلخلة الأعراف :

يقول عبد الإله سليم (إن الاستعارة تُمكن من خلخلة الأعراف بواسطة اقتراح تشابهات غير ملحوظة للوهلة الأولى)[١] إن هذه الصفة في الاستعارة تقيم علاقة بين المتنافرين، ولهذا تظل مرفوضة، وموضع سخرية في بدايتها؛ حتى يدرك المستمع ما يقصده المتكلم فيتقبله، ويستخدمه في كلامه وأشعاره، بل يبتكر منه استعارات جديدة.

نموذج تطبيقي:

لاحظ امرؤ القيس الصورة الحركية للطائر حين يذبح، وكأنه يرقص، فربط بين متنافرين تماما (حالة الطائر الذبيح . حالة الطائر السعيد يرقص) قامت على خلخلة الأعراف الموجودة في الشبكة التصورية للإنسان المقبل على الموت، والإنسان السعيد، وهنا تغذية الصورة الذهنية والبنية التصورية للحدث بما لم يتوقع من الوهلة الأولى لرؤية الحدث، بما يخالف الأعراف ، وذلك بتوجيه النظر إلى جانب آخر في الحدث، وهو الحالة الحركية المصاحبة للحدث، وهذه الحالة تشبه حالة الرقص، فكانت هذه الحركة جامعة بين حالتين مختلفتين متناقضتين متنافرتين (حالة الذبح، وحالة الرقص) أي حالة الموت وحالة السعادة؛ فخلخلت بذلك أعراف القوم.

(إن المبدع يعتمد على نفس الإمكانات الواردة لدى جميع الناس بخصوص آليات الربط بواسطة المشابهة. إلا أن ما يميزه هو قدرته الاستثنائية على خلق كثافة أقوى... إن المبدع يستطيع أن يكثف من قدرة الربط هاته فيربط، مثلا بين الأسنة الزرقاء وأنياب الغول كما فعل امرؤ القيس، فاستنكرت فعله الجماعة لعدم إدراكها طبيعة المشبه به)[٢] بل إن الجماعة اللغوية تستطيع بعد ذلك أن تستفيد من هذه الخلخلة بتوظيف هذه الصورة في خلق علاقات مشابهة جديدة لما رسم في بنيتهم التصورية عن الغول والجن

(١) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ١١٤
(٢) بنيات المشابهة فى اللغة العربية ١١١

والشيطان، فيستخدمون هذه الصورة في وصف أشياء أخرى كالقوة الوحشية بالغول، أو القوة الخارقة بالجان، وقد استعار القرآن الكريم هذه الصورة الذهنية، فوصف بها أشجار جهنم فقال تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)**﴾ [الصافات]، هذا التنافر بين الصورتين الذي خلق هذه الخلخلة جاء .كما يرى بول ريكور . من التوتر الحادث في الصورة بين جملتين يقول (الاستعارة تهتم بعلم دلالة الجملة، قبل أن تهتم بعلم دلالة الكلمة المفردة... فالاستعارة إذًا ظاهرة إسناد لا تسمية. حين يتحدث الشاعر عن صلاة زرقاء أو غطاء الأحزان فإنه يضع كلمتين، نستطيع أن نتابع ريتشارز بتسميتهما المحمول tenor والحامل vehicle في علاقة توتر. وليس إلا الجمع بينهما ما يشكل الاستعارة. وهكذا لا يجب أن نتحدث عن استعمال استعاري لكلمة معينة، بل عن قول استعارى كامل، فالاستعارة هي حاصل التوتر بين مفردتين في قول استعاري... وما دعوناه قبل قليل بالتوتر في القول الاستعارى ليس بالشيء الذي يحصل بين مفردتين في القول، بل هو في حقيقته توتر بين تأويلين متعارضين للقول. والصراع بين هذين التأويلين هو الذي يغذي الاستعارة. وبهذا الاعتبار نستطيع المضي في إرسال القول: إن مناورة الخطاب التي يكتسب بها القول الاستعاري نتيجته هي المجافاة absurdity، ولا نكتشف هذه المجافاة إلا بمحاولة تأويل القول حرفيا فالصلاة ليست زرقاء، إذا كان الأزرق لونا، والأحزان ليست غطاء، إذا كان الغطاء كساء مصنوعا من القماش، فالاستعارة لا توجد في ذاتها، بل في التأويل ومن خلاله[1].

الخلاصة :

إن التحليل الاستعاري باستخدام النموذج الشبكي يمكنه أن يُخرج لنا مكنون الكلمة من المعاني مختلفة، من خلال تحليل مكوناتها الدلالية في إطار علاقة التحديد، وعلاقة التخصيص، وعلاقة الإبداع، ومن خلال علاقتها بالكلمات المجاورة في إطار استعارة الجملة، وباستخدام مفهوم التأويل، إن هذا العمل يقوم على أساس من قدرة المبدع (المتكلم) على خلق هذه العلاقات والترابطات بين الكلمات، وما تشير إليه، وما يمكن أن تشير إليه، بل ما يتنافر معها دلاليا أيضا، وما يثيره هذا التنافر من توتر بين

(١) نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى ٩٠

الدلالات المختلفة للكلمة، قد يصل هذا التنافر إلى حد المجافاة بينها، وكذلك يكتشف المبدع جوانب تشابه ومقاربة ومجاورة، يقيم بها علاقات استعارية وكنائية مختلفة.

إن هذه النظرية تستطيع أن تضعنا في إطار المعاني الكاملة للكلمة، والمتولدة، والمحتملة، من خلال العلاقات التحديدية والتخصيصية والإبداعية لها، فنرى القدرة الفعلية للكلمة على إنتاج عدد لا نهائي من المعاني. ولهذا يجب أن تستقل كل كلمة بدراسة خاصة بها في إطار هذه النظرية؛ لتوضيح قدرتها على إنتاج دلالات جديدة.

النظرية الثانية: نظرية البنية التصويرية :

ما هي البنية التصويرية ؟

تحدثنا قبل ذلك عن النموذج الشبكي الموسع ودوره في دراسة نمو الدلالة، وابتكار استعارات جديدة، والآن نتجه إلى جانب آخر في دراسة قضية المعنى، وهو الجانب النفسي، وهذا يحتاج لنوع من الانسجام بين العلاقات التي تقوم عليها الأنساق الدلالية في اللغات الطبيعية، والعلاقات التي تنبني عليها أنساق معرفية وإدراكية أخرى، فهناك مستوى ينسجما فيه هو مستوى البنية التصورية، فالبنية الدلالية، أي المعلومات المحملة عن طريق اللغة مصوغة بالطريقة التي ينظم بها الذهن التجربة، فهناك عملية عقلية تتم بواسطة الذهن تقوم بتنظيم التجارب والمعارف والإدراكات المختلفة داخله، فيما يعرف بالبنية التصورية؛ لأن تخصيص العلاقات الدلالية يضطرنا إلى استعمال معرفة (تصويرية) غير لغوية، فكوننا نربط بين اللفظ وما يشير إليه يجعلنا نُدخل (بدون أن نشعر) عناصر غير لغوية لإنشاء هذا التصور حول اللفظ في أذهاننا، يقول جاكندوف عن فرضية البنية الصورية (هناك مستوى واحد للتمثيل الذهني هو البنية التصورية تنسجم فيه المعلومات اللغوية والحسية والحركية[1].

هذا المستوى هو المصنع الذي يتم فيه الربط بين كل المعارف والتجارب الفكرية والجمالية والحسية مع اللون والحجم والهيئة والصوت... الخ، والألفاظ التي تدل عليها من خلال بناء تصور ذهني عنها يدخل ضمن بناء كبير في ذهن المتكلم يجمع كل هذه الترابطات والعلاقات بين الألفاظ وما تشير إليه في مجموعات من التصورات الذهنية؛ يقوم هذا المصنع بإنتاج ما يسمى بالبني التصورية حول هذه الألفاظ والأشياء التي تشير

---

(١) جاكندوف وجونسون١٩٨٠ ص١٧

إليها، ولهذا (فالنظرية الدلالية للغة الطبيعية جزء فقط من النظرية العامة للبنية التصورية، وقواعد سلامة الدلالة مجموعة فرعية لقواعد سلامة التصورات، والبني الدلالية الناتجة عن تطبيق قواعد الإسقاط، طبقة خاصة من التصورات[١].

ولهذا لا يمكن أن نميز بين التأويل الدلالي لجملة ما وبين التمثيل المعرفي، للترابط الذي بينهما، فعندما ندرس اللغة، فإننا ندرس بالضرورة بنية الفكر الخاص بها[٢].

الخلاصة :

إن رصد العلاقات المعجمية الدلالية يعني إذن رصد السبب الذي يجعل الناس يعتبرون بعض الأشياء متعالقة دون البعض الآخر، ولا معنى لأن نتساءل عما إذا كانت هذه الأشياء متعالقة في الواقع دون أن نأخذ المعرفة في عين الاعتبار ولا يتم هذا إلا بالدخول إلى هذا المصنع الذي ينتج هذه العلاقات التي تعرف بالبنية الصورية للأشياء، ويمكن تصور هذه العملية كالآتي :

أنساق لغوية + أنساق التجارب والمعارف--> داخل الذهن= الأنساق تصورية

الأنساق التصويرية والاستعارة :

إن البنية التصويرية التي يكوّنها الإنسان للأشياء في ذهنه تقوم على بناء مجموعة من الأنساق التصويرية داخل ذهنه، لا يستعين فيها الذهن باللغة فحسب؛ بل يضاف إليها تجاربه ومعارفه وثقافته، يقوم فيها المجاز بدور المنظم والمرتب والمبتكر لتلك الأنساق التصويرية الجديدة. تعتبر العلاقات المجازية مكونا أساسيا للبنيات الدلالية في اللغات الطبيعية... والمجاز ليس واقعة مكونة للغة فحسب، وإنما يلعب دورا أساسيا في بنية الأنساق التصورية بصفة عامة، أي أن المجاز يقوم بدور فعّال في بنينة الأنساق التصورية.

ولهذا نقول: إن بنينة النسق التصوري واتساقه قائمان في جزء مهم منهما على مبادئ استعارية وكنائية،كما يقول لايكوف وجونسن (إن أنساقنا التصورية العادية التي نفكر بها، ونعمل على ضوئها؛ هي أساسا أنساق استعارية في طبيعتها [٣].

بل إن الاستعارات اللغوية ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النشاطات الفكرية والعملية لدى الإنسان؛ تشكل مع القيم الثقافية نسقا تصوريا متسقا، وبهذا

---

(١) الفاسي الفهري ١٩٨٥ ،١٩٨/٢ جاكندوف ١٩٧٨ ص٢٠٣

(٢) التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم د. محمد غاليم، دار توبقال للنشر المغرب ط١ ١٩٨٧م ص٥٣

(٣) الاستعارة التي نحيا بها ، ليكوف وجونسن٢، ،دار توبقال للنشرالمغرب ٢٠٠٩ص٣

المعنى تعتبر الاستعارة مبنينة للشبكات التصورية عبر توافقات جزئية، ذلك أن جوهر الاستعارة يكمن في فهم نمط من الأشياء، والتعامل معه من خلال نمط آخر.

الكيفية التي تتحدد بها التصورات داخل النسق التصوري :

يقول جاكندوف (إن الكيفية التي بنيت عليها ذواتنا البشرية لتأويل العالم – أي القدرة التعبيرية لتمثلاتنا الداخلية – هي التي تحدد ما تتكلم بصدده اللغة. إن الأمر لا يتعلق بما إذا كانت كيانات [مثل الأمكنة والاتجاهات والأفعال والأحداث والكيفيات ... إلخ] تبنى استجابة لمماثلات خارجية، أو أنها من الثمار الخالصة لخيالنا: إننا نتصرف كما لو كانت موجودة بسبب الكيفية التي نحن مكونون بها) [1].

إننا ندرك الأشياء حسب بنيتنا العقلية وقدرتنا على استيعابها، وتفاعلنا معها، وليس على حقيقتها الواقعية، وهذا يعطي تصورا لعمل العقل البشري في إدراك الأشياء، والكيفية التي تتم بها، مما يجعلنا نبحث في شيئين هامين يسهمان في صناعة النسق التصوري .

أولهما: طبيعة إمكانات العقل البشري .

ثانيهما: تجاربنا مع الأشياء من حولنا .

يقول ليكوف وجونسون (حتى نفهم العالم ونتعامل فيه ومعه، فإننا نحتاج إذن إلى مقولة الأشياء والتجارب التي نصادفها بكيفية ذات دلالة بالنسبة إلينا. ولهذه المقولات أبعاد طبيعية تحددها فهناك :

. أبعاد إدراكية: قائمة على تصورنا للأشياء عن طريق جهازنا الحسي.

. أبعاد حركية: قائمة على طبيعة التفاعلات الحركية مع الأشياء.

. أبعاد وظيفية: قائمة على تصورنا لوظائف الأشياء.

ـ أبعاد غرضية: قائمة على الاستعمالات التي تصلح لها الأشياء بالنسبة إلينا في أوضاع معينة .

إن مقولتنا عن أنماط الأشياء، هي إذن جشطلتات، يحدد بواسطتها كل بُعد من هذه الأبعاد الطبيعية الخصائص التفاعلية. وبما أن الأبعاد الطبيعية للمقولات تصدر عن تفاعلنا مع العالم، فإن الخصائص التي تقدمها هذه الأبعاد ليست خصائص للأشياء في

---

(١) جاكندوف ١٩٨٣ ص٢٥

ذاتها، وإنما هي خصائص تفاعلية قائمة على الجهاز الإدراكي للإنسان وتصوراته للوظائف) [1].

إن الطرق التي نجزئ بها العالم إذن، تبدو نتيجة لوسائلنا الإدراكية والمعرفية التابعة لقيود جشطلتية مختلفة) [2].

هذا يعنى أن عقولنا تعمل بطريقة ممنهجة، فهي تضع أبعادا تحد الأشياء لكي تدركها، وفي هذا خلق لتصور داخلي عن هذه الأشياء، كالأعمى الذي يصنع في ذهنه صورا للأشياء، كصورة للألوان أو غيرها حتى يتمكن من تعامل معها بتصورها.

هذا التصور يُصنع من ثقافتنا وتجاربنا ومعارفنا؛ ولهذا يأتي حاملا معه كل هذه الأشياء، وبذلك تختلف تصورات الأشخاص للأشياء نتيجة لهذه العوامل التي كونتها كما في مفهوم أمام وخلف في لغة الهاووسا وفي اللغة العربية، وكما في الصور الملتبسة (أوزة – أرنب) عند جاكندوف، حيث تتحدد الصورة المختارة في ذهننا بناء على الكيفية التي تدخل بها هذه الصورة إلى أنساقنا المعرفية – الإدراكية في التكوين الخلاق لأحكامنا المقولية بصدد ما نراه، فهذه الكيفية ترسم صورة سريعة للشيء من أول وهلة، فتثير في الذهن مجموعة من علاقات مع أشياء أخرى، تنطلق على إثرها الصورة المشابهة لها من الذهن من خلال التطابق بين الشيئين (الشيء الموجود في الواقع، والشيء الذي يشبهه في الذاكرة) فتبدو العملية من خلال هذا الشكل الذي يصور مراحل بناء النسق التصوري عن الأشياء في الذهن :

(رؤية الشيء الملتبس [أوزة/ أرنب]) تدخل إلى----> أنساقنا المعرفية – الإدراكية ----> ربط ملامح الصورة التي في الواقع مع البني التصويرية التي في الذهن ---> الناتج صورة مختارة[بطة أو أرنب] هي حكمنا على الصورة الملتبسة، هذا التصور الذي بنيناه عن الشيء هو الذي سيحدد كيفية سلوكنا وتفاعلنا معه.

مثال: [البيع والشراء] هما من الأنشطة البشرية اليومية التي بُنينتْ العقلية البشرية على حبها، والارتباط بها، ورؤية الأشياء والأشخاص من خلالها، فإذا عُرضتْ على الذهن؛ فإنه يتعامل معها بطريقة آلية لا تحتاج إلى تفكير كثير، ولهذا تم استخدام هذا

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ١٦٠.
(٢) جاكندوف (١٩٨٥) ص٢٤

المجال بكل حيثياته لتقديم مجال آخر يشبهه في بعض الجوانب؛ وإن اختلف معه في بعضها الآخر، فالجنة والنار بكل خصائصهما تُقدمان إلى العقل البشري من خلال هذا المجال (البيع والشراء) وهنا توظف إمكانات العقل البشري في إدراك الأشياء أخرى، فيراها بوضوح رغم بعده عنها، فهو يحسها ويشمها كقول بعض الصحابة (إنني أشم رائحة الجنة) هذا القول يتم في إطار القدرة العقلية البشرية في إدراك الأشياء التي تصل إلى حد المعايشة معها، من خلال تخيلها الدائم الذي بني لها صورة ذهنية في البنية التصورية عنده؛ يتم استدعاؤها عند ذكرها، ويأتي مجال التصور (البيع والشراء) ليضع نتيجة هذه العملية: المكسب أو الخسارة بالجنة أو النار، لتكتمل الصورة الذهنية عن هذا التصور.

هذه العملية (كيفية بنينة الأنساق التصورية) تعنينا كثيرا لأنها الوسيلة التي يمكن من خلالها فهم كثير من الصور الاستعارية في القرآن الكريم، حيث اعتمدت في مجملها على طبيعة القدرة العقلية للبشر، وإمكانياتها على إدراك الأشياء، فوظفت هذه القدرة الإدراكية في تقديم الصور المجهولة من خلال الصور المعلومة، وتم بنينة الأنساق التصورية للإنسان على أساس من قدرته العقلية على التخيل والتصور .

أنماط التصورات الاستعارية :

إذا كنا نعتبر الاستعارة جهازا للخيال الشعري أو لعبة لغوية أو تفننا في التعبير البلاغي، لا علاقة ضرورية بينه وبين اللغة العادية، أو أنها خاصية للغة وحدها دون النشاطات الفكرية والعملية؛ نجدها على العكس من ذلك حاضرة باستمرار في حياتنا اليومية، فأنساقنا التصورية العادية التي نفكر بها ونعمل على ضوئها، هي أساسا أنساق استعارية في طبيعتها، وبهذا المعنى تعتبر الاستعارة مبنينة للشبكات التصورية عبر توافقات جزئية، ذلك أن جوهر الاستعارة يكمن في فهم نمط من الأشياء، والتعامل معه، من خلال نمط آخر .

ويحدد ليكوف وجونسن أنماط التصورات الاستعارية التي تعمل كلها على بنينة النسق التصوري في ثلاثة أنماط هي:

١- استعارات بنيوية .

٢- استعارات أنطولوجية .

٣- استعارات اتجاهية.[١]

هذه الأنماط جميعا تعمل بشكل متكامل وبدون تعارض بينها؛ فقد نجد استعارة ما مكونة من أحد هذه الأنماط أو منها جميعا، وهذا الأمر مرتبط – أولاً – بطبيعة الصورة التي ترسمها هذا الاستعارة وأجزاء هذه الصورة. فهي جميعا تعمل على نقل تصور ما إلى أنساقنا التصورية من خلال تصور آخر نعرفه من خلال تجاربنا السابقة حوله، فما نلاحظه هنا من عمل النسق التصوري أمرين :

الأول : أننا نقوم بتجزئة الصورة (المطلوب فهمها) لنقلها إلى أنساقنا التصورية.

الثاني : مقابلة هذه الأجزاء بما يشبهها في أنساقنا التصورية .

ثم تأتي قمة المقابلة في التعايش مع الحدث والانفعال به كأنه حقيقة وليس خيالا.

هذه العملية تتم بطريقة آلية من قِبل العقل، وبدون مجهود يمكن ملاحظته – غالبا – لأنها حاضرة في كل لحظة من حياتنا، بل هي وسيلتنا للتفاعل بيننا وبين مجتمعنا، وما فعله لايكوف وجونسن هو تصنيف الصور الاستعارية إلى أنماط تتفاعل معنا؛ لتكوين الصورة المراد نقلها إلى عقولنا، هذا التصنيف يقوم على تحديد الحيز الذي يعمل فيه كل نمط، وهذه العملية تتم بالفعل في عقولنا قبل أن يكتشفها لايكوف، وهي:

١- الاستعارات البنيوية: تتم فيها بنينة تصور ما، استعاريا، عن طريق تصور آخر، فالتصور الاستعاري: الجدال حرب، يتعلق بنمطين مختلفين من الأشياء: الجدال (خطاب لغوي) والحرب (صراع مسلح) يتطلبان إنجاز نمطين مختلفين من الأفعال، ولكن الجدال يبنين جزئيا، ويفهم وينجز ويتحدث عنه من خلال الحرب. فالتصور والنشاط العملي مبنينان استعاريا، والنتيجة أن اللغة كذلك)[٢].

هذا العمل هو توسيع لإدراكنا عن الجدال، ولكن هذا لا يمنعنا من أن ندرك شيئا هاما، أن جزءا من هذا التصور حقيقي؛ بمعنى أننا قد نتجادل معا حتى يصل هذا الجدال الكلامي إلى حرب فعلية من السب والتشابك بالأيدي لذا فهو مقدمة للحرب.

كذلك نلحظ عند بناء صورة ذهنية عن الجدال في العقل أنها صورة منتزعة من الصورة الموجودة في أنساقنا التصورية عن المعركة، ولهذا سُميت هذه الاستعارة بالاستعارة

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ١٤ ،١٧ ، ٣٢.٢٥، والتوليد الدلالى د.غاليم٩٦

(٢) الاستعارات التى نحيا بها ١٤ ،١٧ ، ٣٢.٢٥، والتوليد الدلالى د.غاليم٩٦

البنيوية (ولا علاقة بين هذا الاسم والمذهب البنيوي) إنما هي صورة مركبة متكاملة للجدال بحيثياته في مقابل صورة مركبة متكاملة عن الحرب، نقابل بينهما، ونستدعى من الذاكرة كل أجزاء الصورة الثانية لفهم الصورة الأولى. بل إننا نستغرق في هذا التصور، ونستحضره حتى يصل إلى الذروة، وهى تحول النقاش، والجدال أحيانا إلى معركة تبدأ كلامية وتنتهي بالتشابك بالأيدي أو معارك بين الدول.

هذا الأمر يستتبع - بطبيعة الحالة - استدعاء كل خصائص صورة الحرب من التأهب للخصم واستحضار كل القوي، والمهارات والتكتيكات الحربية إلى أرض المعركة الجديدة (الجدال) ولهذا نحن نعيش هذه اللحظة في جو المعركة الحربية، لا الجدال الكلامي، فتبدأ عقولنا في التفاعل مع الحدث بهذه الطريقة، وتستجيب له (أي للحدث) حواسنا وسلوكنا وانفعالاتنا تجاه الخصم، ولهذا تكون النتيجة – غالبا – واحدة، ويمكن تصور المقابلة بينهما بهذا الشكل :

حرب في الميدان-->(تستدعى للميدان أدوات الحرب)-->النتيجة قتل ودمار.

حرب كلامية(جدال)-->(تستدعى من الذهن أدوات الحرب)-->النتيجة قتل ودمار

قيمة الاستعارة البنيوية :

تتحدد قيمة هذه الاستعارة في :

المعايشة: حيث نبنى تصورنا عن مجال ما من خلال مجال آخر، ثم نعيش فيه باستدعاء المقابل له من أنساقنا التصورية، فنحيا في الثاني، ونعني بحديثنا الأولى، هذه المعايشة لها قيمتها في تفاعلنا مع الاستعارة التي تحولت إلى حقيقة، فمَنْ مِنّا لم يدخل في جدال مع الآخر؟ وماذا شعر في هذه اللحظة؟ لقد شعر بأنه فعلا في حرب ولابد أن ينتصر على خصمه، ولكنه لم يشعر عندما يحتد الجدال أن هذا مجرد كلام، لا يصل، ولا ينبغي أن يصل إلى التشابك بالأيدي، إن الاستعارة البنيوية استحضار لحدث سابق، والمعايشة فيه بكل حيثياته، لفهم حدث آخر يشبهه في بعض جوانبه.

يقول لايكوف (المشكل إذن، أنه ليس تصورنا عن الجدال وحده يرتكز على معرفتنا وتجربتنا مع المعركة الفيزيائية، فطريقتنا في إنجاز الجدال ترتكز بدورها على ذلك،...، فأنت تتصور الجدالات وتدركها وتنجزها بالرجوع إلى استعارة الجدال حرب؛ لأنها تشكل جزءا من النسق التصوري للثقافة التي تعيش فيها[1]، ويقول مترجم الكتاب

(١) الاستعارات التى نحيا بها ص ٨٣

لايكوف (لولم تكن طريقتنا في إنجاز الجدال ترتكز على معرفتنا بالمعركة الفيزيائية لما كان بالإمكان أن تتحول بعض جدالاتنا إلى ضرب وعنف فيزيائيين أحيانا. هنا يتبين أنه لا يوجد حدود فاصلة على مستوى الإنجاز بين الجدال والصراع الفيزيائي)[1].

توظيف الاستعارة البنيوية :

هذه الاستعارة تستخدم في بنينة النسق التصوري لإدراك مجالات جديدة من خلال مجالات مبنينة مسبقا، فلو أننا لاحظنا (السوق) كنسق تصوري مبنين في أذهاننا؛ معروف لدى كل البشر بكل خصائصه، كيف يمكن أن نستفيد من هذه البنينة؟ لقد فعل الحق تبارك وتعالى هذا في توظيف هذا المجال (السوق) المبنين في نسقنا التصوري في تقديم شيء آخر، لم يدخل في حسبان الناس من قبل أن يقدم بهذه الصورة رغم علمهم به، وهو الهدى والضلال والإيمان والكفر والجنة والنار والدنيا والآخرة، ثم نتفاعل مع هذه المجالات على أنها سلع تباع وتشترى، وقد فعل هذا في مجالات كثيرة، سنذكرها في موضعها .

٢- الاستعارة الأنطولوجية: ما معنى أنطولوجيا ؟ (هو أحد بحوث الفلسفة الرئيسية، وهو يشمل النظر في الوجود بإطلاق، مجردا من كل تعيين أو تحديد، وهو عند أرسطو علم الموجود بما هو موجود، ولهذا سُمِّي بمبحث الميتافيزيقا العام، ويترك البحث في الوجود من نواحيه المختلفة للعلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية)[2].

إذا كانت الأنطولوجيا يقصد بها النظر في الوجود بإطلاق غير محدد أو معين، أي النظرة الشاملة العامة للوجود وللأشياء؛ فإن الاستعارة الأنطولوجية لابد أن تنطلق من هذا المفهوم، فتقوم باستعارة شيء عام مطلق مفهوم لدينا من خلال تجاربنا معه؛ لفهم شيء لم نره من قبل، ولكنه موجود بالفعل، فهذه الرؤية نوع من الميتافيزيقا، أي ما وراء الطبيعة، وهي عملية عقلية يتم فيها فهم غير المنظور بالشيء المنظور، فنحن نستعير الشيء المنظور (كل ما نراه في الطبيعة) لفهم ما لم نره من قبل من أحداث وأنشطة وأحاسيس وأفكار، ولكننا نرى هذه الأشياء من خلال آثارها علينا وتجاربنا معها، ولهذا تتحول هذه الأشياء غير المنظورة لذوات لها كيانات، ووجود مادي، نتعامل معها على أنها مواد فيزيائية، أي فهم المعنوي والتفاعل معه كأنه مادي.

---

(١) المرجع السابق ص٨٣

(٢) المعجم الفلسفى ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٨٣م ص٢٦

هذا التعامل والتفاعل مع هذه الأشياء غير المنظورة أصبح وسيلة أساسية لإدراك أذهاننا للعالم من حولنا، وخلق تصور في داخلنا لها، فالأفكار تتكلم، والأحاسيس تبكى، لا لأنها تفعل هذا، ولكن لأننا رأينا من يتكلم أو يضحك، فيُنقل لنا عن طريق سلوكيات هذا الشخص المعروفة لنا، سلوكيات هذه الأشياء غير المنظورة التي تشبه سلوكيات هذا الشخص المعروفة، فنتخيل كيف يكون كلامُ الأفكار وبكاء الأحاسيس؟.

بعد هذه الخطوة الأساسية في معالجة إدراك الأشياء غير المنظورة من خلال أشياء منظورة؛ تأتي الخطوة الجوهرية، وهي التعامل مع هذه الأشياء في ثوبها الجديد، أي بعد تجسيدها في شكل مادي ما، فتصبح هي إياه بكل خصائصه، كمَنْ لبس ثوب القاضي لابد أن يسلك سلوكه بكل خصائصه، ومن لبس ثوب المحامي لابد أن يسلك سلوك المحامي بكل خصائصه... وهكذا نتعامل معها، ونحيل عليها في استعارتنا .

بهذه الطريقة يتحول العالم المحيط بنا بكل موجوداته إلى وسيلة لفهم كل الأشياء غير المنظورة، فهو مصدر مستمر لتلك الاستعارات الأنطولوجية، فتتحول الآلة الذهن عندنا إلى آلة عبقرية سريعة للقيام بهذه المعالجة، فنفهم كل هذه الأشياء، ونتعامل معها بطريقة آلية سريعة، وتصبح وسيلتنا لإدراك العالم غير المنظور، بل إننا لا نشعر بها — غالبا – ونعتبرها شيئا طبيعيا، لأنها دخلت في البنية التصورية لنا كإحدى حواسنا التي ندرك بها العالم، ونتفاعل معه ك (السمع و البصر) ولا نشعر بوجود هذه الحواس إلا إذا فقدناها، وهي حاسة التخيل والتصور، فنقول: فلان لا يفهم لأنه لا يتخيل .

بهذه الطريقة نستطيع فهم كلمة (استعارة أنطولوجية) قال لايكوف عنها: (فتجربتنا مع الأشياء الفيزيائية، والمواد تعطينا أساسا إضافيا للفهم، وهو أساس قد يتعدى الاتجاه البسيط، وإن فهم تجاربنا عن طريق الأشياء، والمواد يسمح لنا باختيار عناصر تجربتنا، ومعالجتها باعتبارها كيانات معزولة، أو باعتبارها مواد من نوع واحد. وحين نتمكن من تعيين تجاربنا باعتبارها كيانات أو مواد، فإنه يصبح بوسعنا الإحالة عليها، ومَقْولتها، وتجميعها، وتكميمها، وبهذا نعتبرها أشياء تنتمي إلى منطقنا... تكون تجاربنا مع الأشياء الفيزيائية (وبخاصة أجسادنا) مصدرا لأسس استعارات أنطولوجية، متنوعة جدا، أي أنها تعطينا طرقا للنظر إلى الأحداث، والأنشطة، والإحساسات والأفكار... إلخ، باعتبارها كيانات ومواد .

نستعمل الاستعارات الأنطولوجية لحاجات مختلفة، والاختلافات الحاصلة بين هذه الأنواع من الاستعارات تعكس هذه الحاجات المختلفة التي استُعملت هذه الاستعارات من أجلها لننظر، مثلا، إلى تجربة ارتفاع الأسعار التي يمكن أن تعتبر استعاريا كيانا نُسميه التضخم. وبهذا نحصل على طريقة للإحالة على هذه التجربة :

التضخم كيان :

١. إن التضخم يخفض مستوى عيشنا.

٢. يجب محاربة التضخم... يسمح لنا اعتبار التضخم بالإحالة عليه، وبتكميمه، بأن نعين منه جزءا خاصا، وبأن نرى فيه سببا، وبأن نتصرف بحيطة إزاءه، وربما بأن نعتقد أننا نفهمه، فاستعارة أنطولوجية كهاته ضرورية في محاولتنا تقديم تحليل عقلاني لتجاربنا[1].

هذا الكلام لجونسون ولايكوف يشير إلى مفهوم استعارة جديدة، تقوم على تصور ما رسخ في أذهاننا عن شيء معين نتيجة لتجاربنا الفيزيائية معه، فنحيل على هذا التصور، ونتعامل معه على أنه شيء مادي، فكلمة (تضخم) تشير إلى عملية نمو لشيء ما حتى يصبح ضخما، وهي تعد حدثا أو نشاطا تم لهذا الشيء، رأيناه وعرفناه بكل خصائصه عن طريق تجاربنا معه، ثم تتحول هذه الكلمة من الدلالة على شيء مادي نكاد نلمسه، إلى الدلالة على شيء معنوي كالتضخم الاقتصادي، ولهذا نتعامل معه، ونشير إليه في حديثنا على أنه مادة، فنقول الأمثلة السابقة، كل هذا ونحن لا ننتبه إلى أن التضخم نشاط خاص بالماديات من إنسان أو حيوان... إلخ، وليس خاصا بالأشياء المعنوية .

قيمة الاستعارة الأنطولوجية: تبدو قيمة هذه النظرية من خلال :

أ– التجسيد: أي تجسيدها الواقع غير المنظور من خلال خصائص واقع منظور، والتفاعل معه على أنه كيان موجود، فيبدو متجسدا، ليسهل التعامل والتفاعل معه .

ب– الفهم: وذلك باستخدام الواقع الملموس في إدراك وفهم الواقع غير الملموس، فيفتح ذلك بابا أكبر للفهم والإدراك، بتوظيف ما حولنا في فهم وإدراك ما لا نرى.

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ٤٥،٤٦

ج- الخيال: يضيع الخيال في هذه العملية، لماذا ؟ لأن التصور الجديد قد يرسخ في الذهن؛ حتى يبدو كأنه الواقع، فيُنسى الواقعُ الخيالَ الذي قامت عليه هذه الاستعارة.

التفاعل بين الاستعارتين (الأنطولوجية والبنيوية):

يقول لايكوف: (إننا حين نعيش باستعارتي العمل مورد والزمن مورد، وذلك ما نفعله في ثقافتنا، ننزع إلى عدم إدراكهما باعتبارهما استعارتين، إلا أنه كما يتبين من خلال رصد أسسهما في التجربة، فكلتاهما استعارتان بنيويتان أساسيتان في المجتمعات الغربية المصنعة. هاتان الاستعارتان البنيويتان المركبتان تستخدمان استعارتين أنطولوجيتين بسيطتين: تستخدم استعارة العمل مورد استعارة النشاط مادة، وتستعمل استعارة الزمن مورد استعارة الزمن مادة. واستعارتا المادة هاتان تجعلان العمل والزمن يكممان، أي يقاسان، ويتصوران كما لو كانا يُنفذان تدريجيا، ونسند إليهما قيمة مالية. إنهما تسمحان أيضا، باعتبار الزمن والعمل شيئين بالإمكان استخدامهما من أجل أغراض متنوعة)[1]، ويمكن رسم تصور للعلاقة بين الاستعارتين كما يأتي:

العمل مورد - الزمن مورد----> مفهوم ثابت في المجتمع الغربي (استعارة بنيوية)

العمل مورد - الزمن مورد--> نفهم النشاط والزمن كأنهما مادة (استعارة أنطولوجية)

والحقيقة أنها عبارة واحدة، فكيف تكوّن استعارتين مختلفتين في ذات الوقت ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستوضح الفرق بين الاستعارتين، فإذا نظرنا إلى هذه العبارة من جانب البنية التصورية لها في مجتمع معين، أي كيف هي في عقول هؤلاء القوم، وكيف بُنْينتْ داخلهم، تكون استعارة بنيوية، نتيجة لتجربتهم معها، فبدأت عقولهم تتعامل معها بناء هذا التصور.

وإذا نظرنا إلى هذه العبارة من جانب آخر، وهو إشارتها إلى الطبيعة المادية الحقيقية للعمل والزمن، فالعمل نشاط والزمن وقت، ولكنهما تحولا إلى مادة نتعامل معها بهذه الصفة؛ فهي استعارة أنطولوجية لتحول المعنوي إلى صورة مادية، تصبح لها قيمة مالية، وتأخذ هذه الصورة كل صفات المادة، فهما يقاسان، أي العمل والزمن، ويقدران بثمن، فلهما وجود مادي في عقولنا؛ كما نفعل مع أي مادة.

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ٨٥

ويذكر لنا لايكوف مثالا آخر للتفاعل بين الاستعارات قائلا: (قد ترتكز الاستعارات الوضعية ذات التنوع البنيوي [مثل: الأفكار أغذية] على مشابهات، تنشأ من استعارات اتجاهية وأنطولوجية. وهذا ما رأيناه بصدد استعارة الأفكار أغذية، إذ ترتكز على استعارة الأفكار أشياء [= أنطولوجية]، وعلى استعارة الذهن وعاء [=أنطولوجية واتجاهية]. وتُستنبط المشابهة البنيوية بين الأفكار والأغذية بواسطة هذه الاستعارة، وتسمح بوجود مشابهات استعارية [= الأفكار والأغذية تُبلع، وتُهضم، وتُلتهم، وتُغذي، ...إلخ])[1].

إن قول لايكوف يعطي تصورا عن تفاعل تلك الاستعارات في إطار بناء الصورة المتكاملة عن الشيء، وما يمكن أن يتولد عنها من صور جديدة يبدعها عقل المتكلم، فهو ينظر بعقله إلى جهات متعددة من الصورة، بل يتعاقب على الصورة العديد من العقول، ولهذا تكون النتيجة فيضا من الاستعارات؛ لوجود سيل من الأفكار مع كل جيل جديد. وكل هذا التشعب، والتعدد في الاستعارات داخل في إطار طبيعة العبارة التي تخلق تصورات مختلفة حولها، وهي قابلة وقادرة على تحمل تلك التصورات.

٣- الاستعارات الاتجاهية: يتم فيها تنظيم نسق كامل من التصورات، باعتماد نسق آخر، وتسمية هذه الاستعارات بالاتجاهية ناتج عن كون أغلبها يتعلق بالاتجاه الفضائي (فوق/ تحت، داخل/ خارج، أمام/ وراء) فتعطي هذه الاستعارات الاتجاهية للتصورات اتجاهات فضائية، فتكتسب مكانها من الموقع الذي تحتله في الفضاء الذي يحيط بنا، فتصبح في المكان الأعلى (فوق) لا لأنها بالفعل فوق؛ ولكن لأن لها قيمة كبيرة عندنا، كالسعادة فهي دائما في القمة، والحزن في القاع، إن استعارات اتجاهية كهذه ليست اعتباطية، بل توجد مرتكزاتها في تجاربنا الفيزيائية، والثقافية؛ نتيجة لتصورات سابقة.

إن هذه التصورات الاستعارية تخلق علاقات بين الأشياء المادية المدركة بالحواس والخبرات وبين الأشياء المعنوية التي تعرفنا عليها، ونقلناها إلى تصورنا الذهني، بناء على تجاربنا وثقافتنا السابقة معها؛ فتصبح هذه الأشياء المعنوية مفهومة معروفة بناء على التصور المادي المسبق، إن هذه الاستعارات التفضية متجذرة في تجاربنا الثقافية والفيزيائية

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ١٥٦

وليست من محض الصدفة، إنه لا يمكن لاستعارة ما أن تسعفنا في فهم تصور معين إلا بمقتضى أساسها في التجربة، أي تجربتنا معها (فلكل استعارة فضائية نسقية داخلية، فاستعارة السعادة فوق تحدد نسقا منسجما من الاستعارات، وليس مجموعة من الحالات المعزولة والصدفوية، فالنسق سيفقد اتساقه لو كانت جملة مثل [إنني في القمة] تعني أنا سعيد، في حين تكون جملة من قبيل [ارتفعت معنوياتي] تعني أنا حزين)[1].

قيمة التفاعل بين الاستعارات :

يمكن للجملة الاستعارية أن تعطي أكثر من تصور نتيجة لطبيعتها، وقدرة المستمع على تحليل مكوناتها بالنظر إليها من جوانب متعددة، ويمكن الاستفادة من أنماط الاستعارات التي ذكرها لايكوف؛ فهي تعمل على بنينة نسقنا التصوري، وتحديد الدائرة التي تدور فيها تلك الاستعارات، بل إننا يمكننا تحليل الخطوط التي تنسج استعارات متعددة في عبارة واحدة، فتبني صورة متكاملة عن شيء ما في بنيتنا التصورية. ويمكن توظيف تقسيم لايكوف لأنماط الاستعارة لفهم استعارات القرآن من زوايا متعددة :

١- النظر إلى التكامل في وصفه الصورة: حيث يتناول هذا الوصف كل جوانب الصورة، فلو نظرنا إلى استعارة ما (بنيوية وأنطولوجية واتجاهية في وقت واحد) فسنجد أنها متكاملة في وصفها للصورة، ويمكن هذا بعزل كل نمط على حدة لبيان جزيئات الصورة، وتوضيح مكوناتها، وما يترتب عليه من علاقات نشأت أو ستنشأ مع أشياء أخرى تشبهها، وهو سر بقائها واستمرارها، لأنها مصدر لاستعارات جديدة.

٢- اختلاف الأسس التي تقوم عليها الاستعارة نتيجة لاختلاف مرتكزاتها الاستعارية يجعلها قادرة على التوسع من جهات متعددة، فَكوْن القرآن الكريم له القداسة الكبيرة في نفوس المسلمين المتحدثين بالعربية كلغة أم، يجعلهم يقتبسون منه للغتهم العادية اليومية باستمرار عبارات وتشبيهات قرآنية لها أساس في البنية التصورية لهم، فتنمو باستخدامهم لها وتتشعب في كل الاتجاهات، مرتكزة على أحد أنمط هذه الاستعارات القرآنية، وتظل استعاراته متجددة ملهمة في كل العصور.

٣- بيان مدى ارتباط هذه الاستعارات القرآنية بالبيئة: بالاستفادة بما في التصورات الذهنية لأفرادها من أنماط استعارية مختلفة؛ بُنْينتْ في عقلهم، ثم توجيههم بناء عليها،

---

(١) الاستعارات التى نحيا بها ٣٧

أي على صورهم الذهنية، فتصبح وسيلة لإفهامهم كل جديد عليهم، فهذه البيئة تحب التجارة، وقد بُنيتْ تصوراتهم الذهنية على هذا الأساس، ولهذا يُقدم لهم الإيمان على أنه تجارة، فيقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)**﴾ [الصف]، وهنا استعارة بنيوية تقوم على ما بُنين في عقولهم من حب للتجارة [كما للزمن قيمة في عقل المجتمعات الصناعية] وهي أيضا استعارة أنطولوجية لتحويلها النشاط (التجارة) إلى شيء مادي له كيان، يتم التعامل معه، وتكميمه من خلال صفات هذا الشيء المادي، فيصبح لها دور في نجاتهم من العذاب.

ثم تأتى المرحلة العبقرية في هذا العمل، وهي توظيف هذا التصور الذهني المهنين لدى هذا المجتمع، وتلك البيئة في تقديم فكرة معنوية ذهنية جديدة، وهي الإيمان بالله وذلك بوضعها مكان نشاط مُبنين لديهم من قبل نزول القرآن، بل هو حرفتهم الأولى، أي التجارة، فيحتل الإيمان مكان التجارة، ويعطى النتيجة التي تعطيها التجارة وهو المكسب أو الخسارة، وهناك كثير من الاستعارات القرآنية التي جاءت بهذا الشكل.

أقسام الاستعارة :

من خلال النظريتين السابقتين (النموذج الشبكي . البنية التصورية) يمكن النظر إلى الاستعارات القرآنية من منظورين لا أقول مختلفين ولكن متكاملين، يتناول كل منظور منهما جانبا من هذه الاستعارات، فنقسمهما على قسمين هما :

الاستعارة المفردة :

ونتناول فيها الاستعارة المفردة التي تنطلق من كلمة واحدة، ثم تنطلق منها عدة استعارات، نتيجة لأنها تبث عددا لا نهائيا من الدلالات باستخدامنا (النموذج الشبكي الموسع) فنرى كيف تنمو هذه الكلمة، وتتسع دلالتها، وتتمكن من تغطية عدد كبير من الدلالات، فتثرى اللغة وتمكنها من تغطية كثير من الثغرات اللفظية (أي وجود معاني تحتاج إلى ألفاظ تعبر عنها) فهذه النظرية تكشف عن نمو دلالة الكلمة من خلال مجموعة العلاقات التي تحقق ذلك، كعلاقة التحديد وعلاقة التخصيص، وعلاقة الإبداع، التي تنبع من السمات الانتقائية لهذه الكلمة، وما ترتبط بها من كلمات؛ نتيجة لعلاقة

المشابهة أو المجاورة، تلك العملية التي سترصد لنا التاريخ الدلالي للكلمة، وتفتح باب الإبداع الدلالي لها، فيسهم ذلك أيضا في توسيع البنية التصورية لنا حول هذه الكلمة، كما سنرى في الجانب التطبيقي.

الاستعارة المركبة :

وهي الاستعارات التي تسهم في بناء صورة متكاملة عن شيء ما في البنية التصورية، قد تتكون من عدة استعارات، أو استعارة واحدة، نستخدم في تحليلها نظرية البنية التصورية، لنرى هذه الصورة من جوانبها المختلفة، كما ذكرت في استعارة التجارة = مادة (استعارة أنطولوجية)، واستعارة التجارة في عقل العربي = مال (استعارة بنيوية) كما سيعرض الكتاب للأمثلة أخرى .

ولهذا يمكن تناول العبارة الاستعارية بأكثر من منهج بدون تعارض بينها .

النظرية الثالثة: النظرية العرفانية :

العرفان :

اسم من عرَف يعرف، يدل على العِلْم بالشيء أو الإقرار بالمعروف وعدم نكران الجميل، ثم استعمله أهل التصوف لما يكون لهم من معرفة غير آتية عن طريق العقل وغير مثبتة باستدلال وبرهان، وبذلك نفرق بين نوعين من المعلومات المخزنة في الذهن، فينتج عن هذا أن نفرق بين نوعين من الأنشطة الفكرية هما :

الأول: (**نظرية المعرفة**) المرتبطة بصناعة العلوم، وهي نظرية ذات أصول عقلانية قديمة ، وذات أبعاد فلسفية ومنهجية؛ أفرزت النظريات الإبستمولوجية المعاصرة، ومناهج حديثة فى التفكير العلمي والمنطقي.

الثاني: (**النظرية العرفانية**) اتجاه فكرى علمي أقرب إلى أن يكون مشروع بحث في العلوم الطبيعية، لأنه ناتج عن تطور البيولوجيا، ولاسيما علم وظائف الأعضاء، وتقدم الباحثين في سبر أغوار الدماغ، وما نتج عنه من آمال في الوظائف العليا كالإدراك والذاكرة واللغة وغيرها .

وبظهور الحاسب الآلي بدأ ظهور مفهوم علمي جديد هو الذكاء الاصطناعي، وبدأ التفكير في علوم شتى مهمتها النظر في معالجة الدماغ للمعلومات خزنا، وتحليلا، وتأليفا، وخلقا؛ كعلوم الأعصاب وعلم النفس وعلم المنطق والإعلامية واللسانيات، وهي علوم

تتفق على أن الذهن هو مجموعة الوظائف الدماغية المعالجة للمعلومات على صورة طبيعية، قد تكون موافقة أو مخالفة للمعالجة الحاسوبية الصناعية، إلا أنها معالجة مجاوزة للعقل ومناهجه العلمية؛ من حيث كونها ككل الأمور الطبيعية كامنة في خصائص اشتغال المادة العضوية، لا تخضع للوعي، كما في المعلومات الأخرى البيولوجية لكنها غير ذهنية .

ويمكن التمييز الآن بين شيئين هما المعرفة والعرفان :

المعرفة: هي المعرفة المعقلنة الناتجة عن الحضارة والتفكير الواعى.

العرفان: هو العرفان الطبيعي المترسخ في خصائص الدماغ والمجاوز للوعي والإدراك والصالح موضوعا للدراسة العلمية .

هو تمييز بين ما هو العلم، وما هو موضوع العلم، أي بين ما هو من الثقافي، وما هو من الطبيعي. الأول: هو المعرفة التي تدخل إلى الذهن نتيجة للحضارة والثقافة. الثاني: هو العرفان الناتج عن طبيعة الدماغ ومعالجتها الفطرية للمعلومات كمعلومات بيولوجية، ولهذا فكل معرفة قائمة على عرفان، ولا يقوم العرفان على المعرفة، أي أن العرفان أعم وأشمل .

ويمكن تصور هذه العملية التي نجمع فيها بين الفرع والأصل والخاص والعام من خلال هذا الشكل :

الدماغ: صندوق به قدرة طبيعية على معالجة المعلومات كقدرة كامنة في مادته العضوية .

المعرفة: المعلومات الداخلة للدماغ المتفاعلة مع قدرته الطبيعية الكامنة فيه، وما ينتج عنها .

المعرفة --> الدماغ --> معلومات مكونة من تفاعل الدماغ مع المعلومات الداخلة لها. فالمعرفة تدخل إلى الدماغ فيتفاعل معها بما لديه من قدرات طبيعية على معالجة هذه المعلومات، ويكون الناتج هو معرفة ناتجة عن هذه المعالجة.

لقد ظهر هذا العلم (العرفاني) ليجيب عن أسئلة مثل: كيف نفكر؟ وكيف نتمثل العالم من حولنا ؟ كيف نكتسب المعلومات ونخزنها ونوظفها ؟ من خلال علم النفس العرفاني الذي يتقاطع مع علوم مختلفة كالسبيرنطيقا، وعلم الأعصاب، والفلسفة، وعلوم

الدماغ، وعلم الحاسوب، والأنثروبولوجيا واللسانيات وغيرها من العلوم التي تسمى بالعلوم العرفانية .

يقول لايكوف (علم العرفانية حقل جديد يجمع ما يعرف عن الذهن في اختصاصات أكاديمية عديدة: علم النفس واللسانيات والأنثروبولوجيا والحاسوبية. وهو ينشد أجوبة مفصلة عن أسئلة من قبيل: ما هو العقل ؟ كيف نعطى لتجربتنا معنى ؟ وما هو النظام المفهومي وكيف ينتظم ؟ هل يستعمل جميع البشر النظام المفهومي نفسه؟ وإن كان الأمر كذلك فما هو هذا النظام ؟ وإن لم يكن كذلك ما هو بالتحديد ذاك الشيء المشترك بين بني البشر جميعهم في ما به يفكرون ؟ فالأسئلة ليست جديدة، ولكن بعض الأجوبة جديد)[1]؛ فالعلوم العرفانية تدرس الذكاء عامة والذكاء البشري وأرضيته البيولوجية التي تحمله، وتعني كذلك بمقولته، وتبحث في تجلياته النفسية واللغوية والأنثروبولوجيا.

اللسانيات العرفانية :

(تمثل اللسانيات العرفانية تيارا لسانيا حديث النشأة، يقوم على دراسة العلاقة بين اللغة البشرية والذهن والتجربة بما فيها الاجتماعي والمادي البيئي أي: العلاقة بين اللغة+ الذهن+ التجربة (الاجتماعية والمادية والبيئية) فإذا كانت النظرية التوليدية تقوم على أساس النحو الكوني، الذي ترى أنه مركوز في عضو ذهني من الدماغ مخصوص هو اللغة، وخلافا لهذا الرأي يذهب التيار العرفاني إلى تجذر تلك المبادئ الكونية في الملكة العرفنية، فينتفي بذلك وجود عضو ذهني مخصوص باللغة، فاللغة مثل سائر الأنشطة الرمزية إنما هي وليدة نشاط عرفاني مركوز في المولدة العرفنية العامة التي تمثل نشاط الدماغ عضوا ماديا)[2].

وتمثل اللغة بكل خصائصها وطبيعتها وانتظامها جزءا من النظام العرفني عند الإنسان، ولذلك يكون للغة خصائص هذا النظام العرفاني، وتمثل بوابة يمكن التوسل بها لولوجه، ولذلك تراعى في دراستها الحقائق التي استقرت في شأن العرفنة في سائر العلوم العرفانية، وخاصة في علم النفس العرفاني أي الالتزام بالتعميم[3].

---

(١) لايكوف ١٩٨٧ المقدمة

(٢) النص والخطاب مباحث لسانية عرفنية د الأزهر الزناد دار محمد على للنشرط ٢٠١١/١تونس ٢٢

(٣) لايكوف ١٩٩٠

ويمكن تصور العلاقة بين اللغة والعقل في ضوء النظرية العرفانية كالآتي: العقل صندوق يتم فيه كل الأنشطة الذهنية التي تقوم عليها العلوم العرفانية، ومن بينها علم اللسانيات العرفانية الذى يدرس العمليات العقلية المتصلة باللغة، كإحدى مكونات هذا الصندوق، فتتأثر اللغة بكل خصائص العقل، ونشاطه كسائر العلوم العرفانية، لأنها جزء من هذا النظام العرفاني .

علم الدلالة العرفاني :

يقوم المعنى في علم الدلالة العرفاني على دعائم أساسية (المقولة والفهم والخيال والتجسد) التي تعد مفاتيح أساسية لإدراك المعنى، ولإعادة فهم ذواتنا، وفهم العالم من حولنا وفهم اللغة والإبداع. فالمعنى عندهم يمثل الرابط بين الإنسان وما حوله، ولهذا تعد الأسس السابقة وسيلة العقل في إدراك المعنى والتواصل بين الإنسان وعالمه، فنحن لا ندرك ما حولنا، ونتفاعل معه إلا من خلال هذه الدعائم التي تعد الخطوات الأساسية إلى فهم المعنى .

أولاً: المقولة :

لا يباشر الإنسان العالم بشكل فوضوي، بل يحاول إخضاعه لنظام يرتب ما يبدو مشتتا غير مترابط، فيقوم بتصنيفه وترتيبه وتبويبه... وعند نظرنا إلى شيء ما باعتباره نوعا من الأنواع، فنحن نمارس فعل المقولة.

المقولة : هي العملية العقلية التي تقوم على ضم مجموعة من الأشياء المختلفة في صنف يجمعها، لذلك فإن كل شيء متعلق بعالم الإنسان محكوم بالمقولة، فأفكارنا وإدراكنا الحسي وحركتنا وكلامنا جميعها نشاطات تقوم على المقولة، فكلما قصدنا إلى إنجاز نوع من الحركة أو قول شيء ما، أو كتابة شيء ما فنحن نستعمل المقولات فالمقولة تُؤسس لكل ممارستنا الإدراكية، وتحكم نشاطنا الذهني واللغوي، فلا يمكننا عمل أي شيء في عالمنا الفيزيائي، وفي مجتمعنا، وفي حياتنا الفكرية، دون مقولة؛ لأن المقولة أمر مركزي في فهم عملنا الإنساني، وهي تتم بصورة آلية، لا واعية، ففي حركتنا في هذا العالم نحن نُمقول بصورة آلية الناس، والحيوانات، والأشياء الفيزيائية وغيرها. بل إن نسبة كبيرة من مقولاتنا هي مقولات كيانات مجردة، فنحن نمقول الأحداث والحركات والمشاعر، وعلاقة القرابة والعلاقات الاجتماعية، والحكومات، والسياسات وغيرها[1].

---

(١) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالة العرفاني .محمد الصالح البوعمراني مكتبة علاء الدين صفاقس تونس ،٢٠٠٩ م ص١٤

ثانياً: الفهم :

أسس العرفانيون لرؤية إنسانية نسبية للفهم تتجاوز الرؤية الإلهية المطلقة ذات الحقائق النهائية، وهي الرؤية التي تتبناها النظريات الموضوعية التي رفضت الفهم؛ لأنه مفهوم يستدعي الذاتية الإنسانية في تحقيق الموضوعي بطبعه، في نظرها، بمعزل عن أي إدراك فردي له، ذلك أن المعنى عندها موجود سلفا قبل وعينا به[1].

هذا يعني أن المعنى – عندهم – موجود في الأشياء، كمُكون طبيعي لها، وما نقوم به هو التعرف عليه، وهذه المعرفة تختلف من شخص لآخر، وهذا الاختلاف لا يغير شيئا من طبيعة الأشياء ومعناها، فهو موجود سلفا فيها، والتغيير الحادث فينا نحن، حيث نفهم، أو لا نفهم هذا المعنى، أو ذاك، فكلمة (شمس) تشير إلى الشمس بكل خصائصها قبل أن نعرف كل شيء عن (الشمس)، وكذلك كلمة حرية، أو ديمقراطية، إذن فالفهم قيد شخصي يخص إدراك الفرد للأشياء، ولكن المعنى أكبر من الإدراك المحدود للأشخاص، ولذلك لو أخذنا الفهم بمفهوم أوسع سنجعله نتيجة للإدراكات المختلفة للمعنى، ويظل معنى الكلمة (من بعد الفهم الحالي) قادرا على إنتاج فهم آخر، بل مفاهيم جديدة ورؤية إنسانية متجددة لا تقف عند حقائق نهائية ثابتة كما في الرؤية الإلهية المطلقة ذات الحقائق النهائية .

ثالثاً: الخيال :

الخيال عند العرفانيين جوهر المعنى، والتفكير الإنساني، وهو الذي يُنين جزءا كبيرا من نظامنا التصوري، وبُني المتخيل هي الملك المشترك الذي من خلاله نحاول فهم العالم من حولنا وإدراكه بطريقة تسمح بالتواصل والتخاطب فيما بيننا، فلا يمكننا فهم بعضنا والتواصل معا إلا لأن هناك جزءاً مشتركا من الخيال بيننا يسمح لنا بالتفاهم.

رابعاً: التجسد :

بما أنه لا وجود للمعني والخيال بعيدا عن عالمنا المتجسد، فنحن ندرك العالم ونفهم الأشياء من حولنا انطلاقا من حضورنا الجسدي في الزمان والمكان، فمكان الإدراك ومسافة الإدراك، وطريقة الإدراك، وزاوية الإدراك، هي التي تحدد طبيعة فهمنا للشيء المدرك، فكل متكلم هو عند نفسه محور العالم، فذاته ومكانه وزمانه هي المرجعيات

(١) المرجع السابق ٨

العرفانية التي تحدد وجود الأشياء وطريقة كلامه عليها[1] لقد جاء إلى الإنسان شعوره بجسده وتمحوره حوله من:

١- أنه تعود أن يدرك الأشياء من خلال نظره إليها، فالأشياء التي يراها يدركها، والتي لا يراها يحاول أن يجسدها في شكل أشياء مادية ليتعامل معها، فالتجسد ضرورة للفهم، وصورة من صور التخيل.

٢- جسد الإنسان: هو محور العالم لأنه أقرب شيء إليه، يصاحبه ليل نهار، فيراه باستمرار، ولهذا فهو يقيس عليه معارفه، وهو محط تجاربه، وهو مرجعه الدائم للفهم.

يقول د. البوعمراني: (إن المقولة والفهم والخيال والتجسد مفاتيح أساسية لإدراك المعنى كما يؤسس له علم الدلالة العرفاني، لإعادة فهم ذواتنا وفهم العالم من حولنا وفهم اللغة والإبداع)[2].

هذا يعنى أننا لإدراك ما حولنا مما في الكون (صغيركبير) يجب أن نحدده ونجزّئه (بالمقولة) لكي نفهمه، ونستوعبه، وندركه (بالفهم) وفى سبيلنا لتحقيق هذا نستعين بالتخيل والتجسد، فهما وسيلتنا للفهم، والإدراك لما لم نره من الأشياء المادية والمعنوية فيقوم المتكلم بتحديد مقصده، ويوضحه لسامعه مستعينا بالخيال والتجسد والاستعارة من أشياء أخرى، يكون جسده وإحساسه به — غالبا - محور استعاراته.

الاستعارة والنظرية العرفانية :

مفهوم الاستعارة العرفانية: لم تعد الاستعارة ظاهرة لغوية ناتجة عن عملية استبدال، أو عدول عن معنى حرفي إلى معنى مجازي، بل هي عملية إدراكية كامنة في الذهن تؤسس أنظمتنا التصورية، وتحكم تجربتنا الحياتية أي أن الاستعارة في جوهرها ذات طبيعة تصورية لا لسانية، إنها عملية تقوم على استغلال آلة الذهن في إدراك ما حولنا بخلق مجال مشابه له يؤدى إلى تصور ما لا نستطيع أن ندركه لطبيعته الخيالية، أو أننا لم نره قط، فنحيا فيه من خلال ذلك التصور، وفي إطار هذه المشابهة والخلق الجديد، فالاستعارة ذات طبيعة تصورية، لا لسانية. هذا العمل يقوم به كل البشر صغيرهم وكبيرهم لإدراك ما حولهم، وما لم يروه في كل وقت، وفي كل مكان، فهي مندسة في

---

(١) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالة العرفاني ٩

(٢) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالة العرفاني ٩

جميع تصاريف حياتنا اليومية وتجاربنا الحسية المعيشية، لذلك يمكن أن نتحدث عن ثورة أحدثها العرفانيون في تصورنا عن الاستعارة، وفي تصورنا عن الإنسان وعلاقته بالعالم واللغة والثقافة[1].

مراحل بناء الاستعارة: تبدأ الاستعارة بعملية تصويرية عقلية، ثم عملية لغوية يتم فيها النطق بهذه الاستعارة، أي خروجها في قالب لغوي (يجب أن نميز مع العرفانيين بين الاستعارة القاعدية التي هي استعارات تصويرية، وبين التجليات اللسانية لهذه الاستعارات، فالاستعارات تُبنين نظامنا التصوري، واللغة هي إحدى الآليات التي من خلالها تتجلى هذه الاستعارات التصويرية، أو لنقل بعبارة العرفانيين: إن الاستعارات التصويرية طريقة في التفكير، وأن التعابير الاستعارية طريقة فى الكلام)[2].

فيجب أن نميز بين عملية التفكير في خلق مشابهات بين الأشياء المختلفة عن طريق الاستعارة التصويرية، وبين الثوب اللغوي الذي تظهر فيه هذه الاستعارة، فاللغة وإن كانت أهم الأنظمة العلاماتية التي ندرك من خلالها الاستعارات التصويرية، فإنها ليست الوحيدة التي تقوم بذلك، فللاستعارات التصويرية تجليات في أنظمة معرفية أخرى، نستعملها كل يوم في حياتنا اليومية بشكل مألوف، دون أن ندرك طبيعتها الاستعارية، لماذا ؟ لأننا لا نقف عند التجليات الاستعارية التي فيها ودور التصوير الاستعاري في بنائها، والعمليات العقلية التي تمت في ذهن المتكلم لإدراكها، ونكتفي بملاحظة ثوبها اللغوي الجديد، أي ألفاظ العبارة الاستعارية التي سمعناها فحسب .

ملحوظة: النظرية العرفانية تقوم على دراسة عمل العقل (الذهن) في بناء الصورة الاستعارية ليتم إنتاجها، لتجيب على أسئلة:كيف نفكر؟ كيف نرى العالم من حولنا؟

المبادئ التى تتأسس عليها الرؤية الاستعارية عند العرفانيين:

١- الاستعارة ذات طبيعة تصويرية، وما الاستعارة اللغوية إلا تجل من تجلياتها.

٢- إن نظامنا التصوري قائم في جزء كبير منه على أسس استعارية .

٣- إن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، وممارستنا التجريبية.

٤- إن وظيفة الاستعارة هي تمكيننا من تمثيل أفضل للمفاهيم المجردة.

---

(١) المرجع السابق ١٢٣

(٢) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالة العرفاني١٢٦

٥- المشابهة ليست قائمة في الأشياء بل في تفاعلنا معها .

٦- الاستعارات التي نحيا بها هي نتاج تصوراتنا الثقافية، وأي استعارات خارج هذه التصورات الثقافية التجريبية، قد تؤدى إلى تعطيل عملية الفهم والتواصل[١].

دور الذهن في عملية الفهم وبناء الصورة الاستعارية :

الذهن أساس الفهم؛ فبالذهن يدرك الإنسان ما حوله ويتفاعل معه، وعلى أساس من الذهن وعمله جاءت الاستعارة المفهومية لتثبت دورها في عملية الفهم، فهي وسيلة من وسائل الذهن في الفهم، ولكن هناك تعارض في ما يتعلق بالعقل (الذهن) طبيعة، ومادة، واشتغالا، بين النظرية الفلسفية الكلاسيكية، وما جاءت به النظريات العرفانية، أي ما بين الرؤية الموضوعية والرؤية الواقعية التجريبية، ويظهر هذا التعارض في النقاط الآتية :

أولاً: ترى النظرية الفلسفية أن الفكر يشتغل على رموز تجريدية اشتغالا آليا ميكانيكيا :

أ) فالذهن - في هذا التصور- آلة تجريدية تعالج الرموز كما يعالجها الحاسوب.

ب) الرموز (بما فيها الكلم والتمثيلات الذهنية) تقترن بمعانيها باعتماد مناسبتها للأشياء في العالم الخارجي .

ج) المعنى مطلقا هو التناسب ما بين الذهن وحال الأشياء فى الواقع .

ولهذا تصبح:

١- الرموز التى تناسب العالم الخارجي تمثيلا داخليا للواقع الخارجي.

٢- والذهن مرآة للطبيعة فيعمل على تمثيلات داخلية للواقع الخارجي.

٣- الفكر الصحيح السليم ما عكس منطق الأشياء في العالم الخارجي.

ويقوم التناسب بين الرموز والعالم الخارجي قياما مستقلا عن أي ذات من حيث خصائصها أو مميزاتها.

ولكن النظرية العرفانية ترى في (التجربة) جانبا لا يستهان به، فهي تفيد - بالإضافة إلى أساسها الحسي والحركي الجسدي - كل ما يمثل تجربة فعلية أو ممكنة، فردية كانت أو جماعية، فالتجربة تقوم أساسا على طبيعة الجسد من حيث تكوّنه وراثة

---

(١) المرجع السابق١٢٤

واكتسابا، ومن حيث أدوات التفاعل التي له بمحيطه الذي يعيش فيه. فالفكر البشري يتكون ويتبلور ويكتمل بناء على تجربة الفرد الجسدية في العالم، وأساس هذا النظام المفهومي متجذر في الإدراك، وحركات الجسد في محيطه، وفي جميع التجارب أو التفاعلات الاجتماعية والمادية، فالفكر ذو طبيعة أرضية إدراكية جسدية[1].

ثانياً: (الجسد): ترى النظرية الفلسفية أن الجسد مجرد أداة يقودها الفكر المجرد ويوجهها، فالفكر مجرد منتزع من الجسد، فالفكر مستقل قائم بذاته غير خاضع لحدود الجسم البشري، وقصور الحواس لقصور النظام العصبي الذي يملكه، فيمكن – على هذا – للآلة أن تشتغل على رموز تناسب الأشياء في الواقع الخارجي، فتنتج معنى فيه فكر وعقل، إذن حلول الفكر في الأجسام أمر عارض لا يمس شيئا من جوهر الفكر.

ولكن النظرية العرفانية ترى أن الفكر تخيليّ، أي قائم على التخيل والتصوير باعتماد المجاز والاستعارة، ينطلق من أرضية جسدية، هي إدراك الإنسان لجسده، فيتمثل العالم من حوله من خلال هذا الإدراك، أما المفاهيم التي لم تكن ذات أرضية جسدية، فإنه يستعمل الأدوات التي لا يكون فيها انعكاس الواقع انعكاسا حرفيا، أو تمثيله تمثيلا مطابقا له في الواقع، وهذه الأدوات هي التخيل من استعارة ومجاز وما إليهما، وهنا يتضح دور الجسد في إدراك المفاهيم المعنوية والمادية التي ربما لم يراها، أو لم يسمع بها من قبل، فيصنع من جسده وإدراكه له مرجعا لإدراك هذه المفاهيم .

ثالثاً: (التفكيك): ترى النظرية الفلسفية أن الفكر ذريّ بمعنى أنه قابل للتفكيك لجزيئاته، وهي الرموز البسيطة، كما يقبل التركيب بالتوليف المحكوم بالقواعد لتكوين الوحدات المركبة.

وترى النظرية العرفانية أن للفكر خصائص جشطلية وليس ذريّا، بمعنى أن للمفاهيم أبنية شاملة عامة تتجاوز مجموع المكونات الجزئية فيها. ويكون للمفاهيم بنية مرتبطة بالمحيط والبيئة، بمعنى أنها ليست مجرد أبنية رمزية يشتغل عليها الذهن منقطعة عن مجال العيش والتجربة[2].

---

(١) نظريات لسانية عرفانية ١٤١

(٢) المرجع السابق ١٤١

الخلاصة: إن من خصائص الذهن (الفكر) عند لايكوف أنه: تصويري/ مجسدن/ ذو بنية جشطالية، تقوم نظرية بوصف كل خاصية، كنظرية الاستعارة المفهومية، ونظرية الجسدنة، ونظرية الخطاطة، وتكون هذه النظريات لبنات تبني بها المناويل العرفانية المؤمثلة.

وهو ما سنحاول معرفته في ما يأتي :

أولاً: نظرية الاستعارة المفهومية :

هي تسمية لجملة من الأفكار والمبادئ متعددة روافدها في إطار اللسانيات العرفانية، بدأها لايكوف، ولهذه النظرية مبررات عامة تتصل بطبيعة الفكر عامة وبالاستعارة والمجاز خاصة، فالفكرة الكلاسيكية ترى أن العقل يقوم على الحقيقة (المعنى الحرفي) ومجاله القضايا التي تقبل الصدق والكذب بصفة موضوعية، ولكن الفكرة الحديثة الجديدة تأخذ مظهر التخيل (المجاز) في العقل (الاستعارة والمجاز المرسل والتصوير الذهني) باعتباره مكونا مركزيا من مكونات العقل لا مكونا زائدا ينضاف إلى الحقيقة.

فالاستعارة ظاهرة مركزية غالبة في دلالة الكلام العادي اليومي، وهي جزء من الفكر من حيث مثلت أداة في تصور العالم، والأشياء في جميع مظاهرها، فهي جزء من النظام العرفني، ولذلك سميت بالاستعارة المفهومية إذ كانت الاستعارة أداة مفهمة وتمثيل، وتصور يعم كل مظاهر الفكر بما في ذلك المفاهيم المجردة، والمتصلة بالمجالات الأساسية من قبيل الزمن، والأوضاع، والمكان والعلاقات، والأحداث، والتغير والجعل وما إليها. ويجر هذا التحول تغييرا في مصطلح الاستعارة إجراء ومفهوما، فالاستعارة في النظرية الحديثة إسقاط عابر للمجالات في النظام المفهومي، وما العبارة الاستعارية إلا تحقق سطحي لتلك العمليات التي يجري بها الإسقاط المفهومي فى الذهن[1].

إن المبدأ العام المسير للاستعارة لا يكمن في طبيعة النحو أو المعجم، وإنما مكمنه في النظام المفهومي الكامن في أذهان المتكلمين، وقوام هذا المبدأ أننا نتمثل مجالا ما على أساس مجال آخر بتوسط علاقات الإسقاط المفهومي، الذي هو جملة التناسبات التي تقوم بين المجالين عنصرا بعنصر أو مكونا بمكون، بما يسمى إسقاط المعارف المتعلقة بالمجال المصدر على المعارف المتعلقة بالمجال الهدف، فتكون التناسبات إبستيمية، ومكمن الاستعارة تلك التناسبات. كما في عبارة (الحياة رحلة).

---

(١) نظريات لسانية عرفنية ص١٤٢

الإسقاط الاستعاري :

تقوم الاستعارة من حيث بنيتها على الإسقاط ما بين المجالات، والإسقاط هو جملة من التناسبات الثابتة ما بين الوحدات في المجال المصدر والوحدات في المجال الهدف :

وحدات في مجال المصدر (رحلة) بإسقاط تناسباتها على-->وحدات في مجال الهدف (حياة)

(تحدث الاستعارة وما يصاحبها من استدلال بإنشاط تلك التناسبات التي يكون بها انعكاس قوالب المجال المصدر على قوالب المجال الهدف، ويخضع الإسقاط الاستعاري لمبدأ الثبات، والإسقاط نوعان بحسب المصدر والهدف: إسقاط مفهومي يجري ما بين مفهومين أو مجالين مفهومين، وإسقاط الصورة يجرى ما بين صورتين ولا اعتباط في الإسقاط، وإنما هو عملية متجذرة في الجسد وفى المعرفة والتجربة، ويتضمن النظام المفهومي الآلاف من الإسقاطات الاستعارية العادية منتظمة في أبنية مترابطة تمثل بها فيه نظاما فرعيا. وقوام الاستعارة على التناسبات ما بين مقاطع التجربة أساسا، وليس على المشابهة. فالاستعارة تعم الفكر مطلقا، والنظام اللغوي بالاستتباع بما في ذلك المعجم والنحو، ولها مظاهر كونية واسعة الانتشار ما بين البشر ومظاهر خصوصية ثقافية محلية، وما الاستعارة الشعرية إلا امتداد للنظام الاستعاري الذي يقود الفكر في الحياة اليومية)[1].

دور الإسقاط في قيام الاستعارة: إنه عملية إسقاط تناسبات (أي تشابهات) بين مجالين عنصرا بعنصر ومكونا بمكون فنقوم بإسقاط المعارف المتعلقة بالمجال المصدر على المعارف المتعلقة بالمجال الهدف، وتتمثل عملية الاستعارة في قيام تلك التناسبات، وهذا الإسقاط المفهومي متأصل ما بين المجالات في الفكر، وتأصله قائم على قوالب قارة من التناسب الأنطولوجي (أي العام المجرد) ما بين المجالات، فإذا انطبقت تلك القوالب على مجال ما حدثت الاستعارة، وإذا لم تنطبق تلك القوالب لم تحدث استعارة .

ثانياً: مفهوم خطاطة الصورة :

تعتبر خطاطة الصورة شبكة تصورية تنظم نشاطنا الجسدي ومعارفنا الذهنية، وتؤسس لضروب سلوكنا، وتحكم رؤيتنا المنسجمة للحياة والكون (تمثل الخطاطة عند الفليسوف الألماني إيمانييل كانط أداة تتوسط ما بين المدركات والمفاهيم .

---

(١) نظريات لسانية عرفنية ١٥٨

الخطاطات عنده أبنية تصويرية والبنية التصويرية هي الملكة التي تقوم عليها جميع الأحكام العقلية، وهي بذلك ملكة مهمتها التأليف ما بين مختلف أشكال التمثيل ما كان منها متصلا بالمدركات والصور والمفاهيم لتكوين المفاهيم، وهي عنده بنية تصويرية مشتركة بين جميع الناس دون أن تكون مضمونا مفهوميا أو قضويا، فيكون للأشياء من قبيل الكرة – مثلا – مظهر عقلي فكري، من حيث تضمنها لشكل الدائرة، ومظهر حسي من حيث إدراكها على شكلها الحسي المعلوم. فتكون الخطاطة تبعا لذلك تمثيلا وسيطا خلوا من كل مضمون مادي إجرائي. والخطاطات قوالب ثابتة تركب المدركات والمتصورات لتكوين تمثيلات ذات معنى)[1].

إن إجراء عملية المشابهة بين شيئين تسبقها عملية تخطيط لإنشاء صورة تجمع بين مواضع المشابهة بين الشيئين، فتُنشيء شبكة تصورية في الذهن، يُوضع فيها الشيء الأول مكان الثاني، ويتم التعامل معهما باستبدال الأماكن، ومن هنا كانت الخطاطات أبنية تصويرية للأشياء في الذهن تقوم بالربط بين الأشياء المختلفة، وهى ملكة موجودة لدى كل الناس ليتمكنوا من التواصل معا، فلو قلتُ لك صِفْ ليّ بيت فلان، فإنك تقوم بصنع تصور للبيت في ذهنك كما رأيتَهُ (تخطيط صورة) ثم تقوم بنقل هذا التصور إليّ مستعينا بصور مشابه لما رأيتَ، فتتكوّن لديّ صورة مشابه له في ذهنيّ، قد تطابقه في الواقع أو لا تطابقه، ولكنها تمثل صورة ذهنية مقاربة له، وقد تم هذا من خلال تلك العملية (الخطاطة)، ونفعل هذا أيضا مع المفاهيم المجردة لنتصورها. وتتحول الخطاطة إلى سلوك نقوم به، فيظهر العالم بشكل منتظم ومرتب بفضل الخطاطات التي تلعب بأسسها التجسيدية دورا مركزيا في تحقيق هذا الانتظام، بمعنى أن الأسس التجسيدية لخطاطة الصورة هي التي تجعلنا نفهم العالم بصورة منتظمة ... ويضرب جونسن في كتابه الجسد في العقل مثالا لعملية الخطاطة بحدث ابتياع سيارة جديدة، فهذا النشاط يتطلب خطاطة مبنينة بصورة عالية التنظيم، فهناك مشاركون نموذجيون (البائع، المشتري) ودعائم (السيارة القديمة، السيارة الحديثة، قاعة العرض) التتابع العادي للأحداث (ذهاب المشترى للمعرض، البائع يعرض سلعة) الأهداف الأصلية (فرح المشترى بسيارة جيدة بسعر رخيص، حصول البائع على سعر عال) هذه الخطاطة أضحت تنظيما لكل عملية

(١) نظريات لسانية عرفنية ١٦٢

شراء سيارة، بمعنى أن الخطاطة أضحت البنية المنظمة لهذه الحالات المتعددة)[1] فعلى كل مشترٍ فعل ذلك.

أنواع الخطاطة :

هناك أنواع مختلفة من الخطاطة تمثل جميعها عمل العقل في إدراكه لما يراه، في شكل خطوط يسير عليها أو مراحل يمر بها؛ تقوم بنقل الصورة من الواقع إلى العقل، ثم يربط بينها وبين الصور التي يصنعها خياله عن طريق الاستعارة مثل: (خطاطة الميزان).

تعتبر خطاطة الميزان من أهم الخطاطات التي تحكم تجربتنا الحياتية، فهي هيكل منظم لتجربتنا وعالمنا، فالتوازن هو نشاط نتعلمه عن طريق أجسادنا، فنلاحظه في محاولتنا الوقوف والانتصاب وحفظ التوازن من خلال توازننا الجسدي، وكذلك حين نشعر بحرارة أو برودة في أجسادنا فنحتاج إلى التوازن لدرجة الحرارة، فالتوازن الجسدي يعبر عن الحالة الطرازية لخطاطة التوازن، لندرك بعد ذلك التوازن في محيط الفيزيائي وفى عالمنا المحيط بنا، وهذه التوازنات يمكن أن تنسحب على مجالات أخرى أكثر تجريدا، وذلك عبر الإسقاط الاستعاري، فنفس مفهوم التوازن، هذا يمكن أن يسقط على ممارستنا الأخلاقية والعاطفية والقضائية. ويمكن أن نمثل على هذا الإسقاط الاستعاري بالتوازن النسقي والسيكولوجي والتوازن في الجدال العقلي والتوازن القانوني أو الأخلاقي والتوازن الرياضي[2].

خطاطة المسار :

إننا نرتبط مع العالم الذي نعيش فيه عبر مسارات مختلفة، مثل المسار من السرير إلى الحمام، ومن المنزل للعمل، وهناك مسارات أخرى في حيز الخيال، نحو الانتقال من فكرة بسيطة إلى فكرة معقدة، وفى كل المسارات نسلك نفس الأجزاء المشكلة للبنية الجشطلتية الكلية عبر هذه المراحل :

١- المصدر أو نقطة الانطلاق .

٢- الهدف أو نقطة النهاية.

٣- الأماكن المتتالية الرابطة بين المصدر والهدف.

---

(١) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالى العرفاني٩٢ وانظر كتاب مارك جونسون الجسد فى العقل THE BODY IN THE MIND, the bodily basis of meaning imagination, and reason

(٢) دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالى العرفاني٩٧

(الغايات أهداف فيزيائية) حيث تُفهم الأهداف باعتبارها نقطة النهاية التي تتجه إليها كل حركتنا الفزيائية، ففي هذه الاستعارة نفهم أن أكثر الغايات تجريدا كالحصول على الدكتوراة؛ تتم عن طريق أعمال فيزيائية متنوعة للوصول لهذا الهدف.

إننا نفهم الحالات المتعلقة بغايات مجردة عن طريق الإسقاط الاستعاري لخطاطة المسار، وبذلك نفهم الغايات المجردة عن طريق المسار الفيزيائي، فهناك تماثل بين ميدان المقاصد المجردة والميدان الفيزيائي، فخطاطة المسار تلعب دورا هاما في بنينة حياتنا الفيزيائية، وتنظم أفكارنا، ومفاهيمنا والكثير من نشاطنا الأكثر تجريدا.

خطاطة الدورة :

هناك دورات في حياة الإنسان يمر بها مثل دورة حياته في الدنيا من الميلاد والنمو والشباب والشيخوخة، ثم الموت، وهي عبارة عن تكرارات منتظمة لدورات متفاعلة مثل نبض القلب، والنفس، والحيض...إلخ، وهى دورات نعيشها في كثير من شئون حياتنا، والدورة بمثابة الدائرة الزمنية لها بداية ونهاية، كدورة الأسبوع والشهر .

الخصائص المميزة للدورات :

أنها تتكون من حدود زمنية لنشاطنا شديدة الصرامة – غالبا – ورغم أن هذه الحدود يمكن أن تكون غير مرئية، فإن واقعيتها وصرامتها واضحة كلما تجاوزنا هذه الحدود أو اصطدمنا بها. والدورات متعددة ومتراكبة ومتتالية، فوجودنا الزمني يحدد عن طريق مجموعة متميزة من النماذج الدورية الموجودة فينا بإحكام، وبعض الدورات تميز أزمنة مختلفة كالشهر واليوم والساعة، أو وظائف مختلفة كدورة الطلاب في مراحل التعليم مقابل دورة الأستاذ فى التدرج الوظيفي.

خطاطة الاحتواء :

يعتبر الاحتواء الفيزيائي أهم ما يميز تجربتنا الجسدية، وجسدنا هو النموذج الطرازي للوعاء، فالعروق أوعية للدم، والمعدة وعاء للطعام، ونحن نتعامل جسديا مع الأشياء باعتبارها أوعية، وتفاعلنا مع محيطنا يكشف عن هذه الأوعية التي تحكم تجربتنا الحياتية، فنحن نتحرك داخل الغرفة أو خارجها، وداخل فضاء وخارج فضاء آخر، ونستعمل أشياء ندرجها ضمن الأوعية كالفنجان، والكوب، إن هذه الخطاطة نموذجية بالنسبة للأوعية الفيزيائية، فنحن نكاد نخضع في كل فعل نمارسه لخطاطة الوعاء، فنحن في

الصباح داخل العمل، وفي نهاية اليوم في السيارة، وفي المساء داخل المنزل، وكل هذه الأفعال تتميز باشتراكها في بنية مشتركة مؤسسة على الاتجاه داخل . خارج، ويمكن أن نوسع في خطاطة الاحتواء عبر الإسقاط الاستعاري لتنظيم مجالات أكثر تجريدا، كما في عبارات: خرج من عقله، وأدخل هذا التصور في شبكة مفاهيمه، ولن أدخل في حوار معهم، لقد تعاملنا مع هذه الحالات باعتبارها كيانا له حدود، وهي بمثابة وعاء له داخل وخارج.

خطاطة القوة :

تعتبر القوة خطاطة تحكم حياتنا، وتنظم العديد من نشاطنا ومعارفنا، والتفاعل القوى يحكم نشاطنا فهو الذي يحدد تفاعلنا مع غيرنا من الكائنات العضوية، وعناصر الوجود كله من حولنا، وأجسادنا نفسها محكومة بهذا التفاعل الدائم للقوى، وممارستنا اليومية البسيطة فيها ضروب متنوعة من ممارسة القوة، فنمارسها عندما نمشي وعندما نتكلم ونتنفس، وهذه الخطاطة تتجاوز واقعنا التجريبي ليهيكل أفكارنا وتصوراتنا المجردة، حيث يمكن إسقاط تجربتنا الحسية على أكثر تصوراتنا تجريدا، وتتم هذه العملية عبر الاستعارة أساسا التي ستمكننا من استثمار تجربتنا المادية من أجل تنظيم، وفهم تصوراتنا المجردة، ذلك أن الخطاطة عند العرفانيين بنية ما قبلية تنطبق على النموذجين الواقعي والخيالي، كما تتجلى هذه الخطاطة في ممارستنا اللغوية وتعتبر الجهات ممثلا لخطاطة القوة

خطاطة الربط :

عالمنا الفيزيائي ملئ بترابطات نراها في تزاوج الأشياء الفيزيائية، فقطعتان من الخشب مسمرتان إلى بعضهما، وطفل يمسك بيد أبيه، ومصباح كهربائي مشدود إلى مشده، هذه الأشياء البسيطة، وغيرها تعبر عن هذه الترابطات التي نراها بصورة دائمة في حياتنا المعيشية، وهناك ترابطات اجتماعية مثل رباط الأخوة وصلة الرحم وغيرها، كما تترابط الأحداث ترابطا سببيا، ويمكن لخطاطة الربط أن تتوسع استعاريا بانطباقها على ترابطات مجردة، مثل الربط بين النتائج والمقدمات، وهذا ما تعكسه اللغة في أدوات الربط المختلفة، بل في تراكيبها المختلفة.

البنية الداخلية للخطاطة هي التي تجعلها قابلة للانطباق على صور مختلفة فالخطاطة هي جملة من العناصر القاعدية التي تتفاعل في ما بينها مشكلة بترابطها بنية.

أنواع العناصر:

١- قد تكون كيانات مختلفة (أحداث . وضعيات . مصادر ...)

٢- قد تكون علاقات متنوعة (علاقة سببية، وزمنية، مكانية...)

وهذه البنية الداخلية هي التي تعطى الخطاطة منطقا داخليا ومعقولية مخصوصة .

الفرق بين خطاطة الصورة والصورة :

خطاطة الصورة : بنية ذهنية عالية التجريد :

الصورة: ما صدق من ماصدقات هذه البنية المجردة .

كالمثلث الذي ضربه كانط ليوضح الأمر، فليس هناك صورة يمكن أن تكون متماثلة التصور للمثلث بصورة عامة، فلا مثلث من المثلثات يمكن أن يصل إلى كلية التصور الذي يكون صالحا لكل المثلثات، سواء كان هذا المثلث قائم الزاوية أو منفرجها أو حادها، فهو ينطبق على جزء محدد من هذا المجال. فخطاطة المثلث لا يمكن أن توجد في مكان ولكن في الذهن، فالخطاطة من هذا المنطلق ليست صورا مخصوصة حسية أو ذهنية، ولكنها بنية جد مجردة يمكن أن نجد تجلياتها في الصور الحسية والذهنية، فخطاطة الصورة تقع في مستوى من التنظيم الذهني يقبع بين البني القصوية المجردة والصورة الحسية المخصوصة من جهة أخرى.

الخطاطة المحض: ليست صورة غنية أو رسما ذهنيا، ولكنها بالأحرى نموذج جد مجرد، يمكنه أن يتجلى في صور ثرية ومدركات وأحداث وهذه الطبيعة التجريدي لخطاطة الصورة تجعلها عامة ومشتركة وليست حكرا على الناس المبصرين .

عمل خطاطة الصورة: خطاطة الصورة هي البني المجردة المنظمة لحياتنا التجريبية ولتفاعل أجسادنا مع العالم المحيط بنا، وتجعل عالمنا الفيزيائي منظما منسجما، وعملها الأهم يتمثل في إسقاطاتها الاستعارية على تصوراتنا ومفاهيمنا المجردة، إن الخطاطات أساس النظام الذي نلاحظه في عالمنا الفيزيائي والانسجام الذي يحكم تصوراتنا واعتقاداتنا، وبدون الخطاطات يتحول عالمنا إلى فوضى، ونحن غالبا ما نعيش هذا النظام دون أن ندرك هذه الخطاطات المؤسسة له، وغالبا ما نستعملها بشكل لا واع[1]

---

(١) نقلا عن كتاب دراسات نظرية وتطبيقية فى علم الدلالة العرفاني بتصرف ٩١، ١١٩ وكتاب نظريات لسانية عرفنية بتصرف ١٦١ . ١٨١

فالخطاطة صورة مجردة للشيء متطابقة لدى كل البشر يتواصلون بها باستحضارها عند التفاهم بينهم فخطاطة صورة المثلث التي تُستدعى واحدة عندهم .

ثالثاً: نظرية العرفنة المجسدنة (الذهن المجسدن) :

مفهوم الجسدنة: الجسدنة جملة الآليات العصبية، والعرفانية التي تمكننا من الإدراك ومن التنقل في ما يحيط بنا، وهي الآليات نفسها التي تنشئ أنظمتنا المفهومية وطرق التفكير عندنا، وإذا كان الأمر كذلك يكون من الضروري فهم النظام البصري والنظام الحركي والنظام العصبي بترابطاته، فهما دقيقا لكي نفهم الذهن .

للجسدنة أبعاد عديدة يمثل الواحد منها ركيزة من ركائز المفهوم الأم تسعى الدراسات الجسدية إلى إقامته، ويمثل البعد الواحد منها مفهوما جاريا في مجال بعينه من العلوم العرفانية في معناها الشامل مقترنا بمظهر من مظاهر الجسدنة في ذلك المجال، فمنها بعد فلسفي، ومنها بعد متصل بالتموضع الثقافي الاجتماعي عامة وفيه تعبر الجسدنة عن مظاهر السلوك الاجتماعي، والثقافي التي يتموضع فيها الجسد، وغيرها من الأبعاد التي تدل على ارتباط العقل بالجسد في إدراك وفهم كل ما يحيط به، لقد تبلورت فكرة الجسدنة واستقامت نظرية متكاملة، ثم توسعت العناية بها في سائر العلوم العرفانية والعلوم العصبية العرفانية أساسا.

الجسدنة والاستعارة المفهومية :

نشأت فكرة الجسدنة أو تجسد الذهن موازية لفكرة الاستعارة المفهومية، فالاستعارة تمثل لمجال على أساس مجال آخر، والجسدنة تمثل للمفاهيم المجردة على أساس الجسد من قبيل الغضب والفرح والخوف والحزن والقلق.

ومن فروع هذا المجال البحث في الاستعارة الجسدية، أي تلك الاستعارات الجارية في تمثل أجزاء الجسد على أساس مفاهيم أخرى أو تمثل الأشياء الأخرى على أساس أعضاء الجسد، ولكن الجسدنة تتجاوز مجال الاستعارة المفهومية من حيث وفرت مجالا أوسع لدراسة الذهن مطلقا بتبين مظاهر تجسدنه في سائر الأنشطة والتصورات غير الاستعارية من قبيل الإسقاطات المفهومية كالقياس والمزج، وتظل الاستعارة المفهومية خير مورد لفكرة الجسدنة، فيمثل الجسد، في آن، مجال الهدف في تمثيل الأحاسيس، ومجال المصدر في تمثيل مفاهيم أخرى عديدة .

تنقسم الاستعارة فى ضوء ذلك لنوعين :

١- الجسد مجال مصدر: تتمثل فيه مجالات أو مفاهيم تجريدية على أساس الأجساد أو الأعضاء الجسدية مجال مصدر، كما في هذه العبارات: المؤمنون كالجسد الواحد/ هو يحشر أنفه في كل شيء/ باريس قلب أوروبا النابض/ ساق الزهرة طويل.

٢- الجسد مجال هدف: وفيه يتمثل الجسد أو أعضاؤه على أساس مجال آخر، فيصبح الجسد هدفا، كما في هذه العبارات: للجدران آذان/ القلب مضخة والأوردة سواق/ الجسد قلعة حصانتها الوقاية .

مظاهر الجسدنة: النماذج الجسدنة عديدة، وهي على مراتب منها العادي البسيط مما يعيشه الكائن البشري في أبسط مظاهر الحياة، ومنها ما يتعلق بأعلى الوظائف العرفانية تصورا وتخيلا ومفهمة واستحضارا، ففي الحياة اليومية يعود إلى الوعي، وعى الذات بجسدها فى بعض المقامات.

نماذج التجسدن فى تجارب الحياة اليومية :

من نماذج التجسدن ما يكون في توجيهات الطريق عند إرشاد من لا يعرف وجهته، فلاحظ ما يفعله الشخص الذي يقدم توجيهات للآخر، كيف يستدير أو يحول اتجاه جسده في الفضاء ليكون الموقع المعنيّ مواجها له، وفى ضوء ذلك تتوزع المعالم إلى ما قبل، وما بعد وإلى اليمين أو اليسار، وفى ذلك الكثير من مظاهر الإسقاط التى تكون ما بين توجيهات أجسادنا وتوجهات الأشياء، ومن ذلك أمام السيارة والشجرة والدار أو الجامع وأمام المغارة وما إليها .

ومن نماذج الجسدنة تمثيل المفاهيم التجريدية على أساس جسدي فيزيولوجي، ومنها مفهوم الغضب، فقد كانت الانفعالات أحولا ذهنية عرفانية صرفة، ولكن ثبت أن سرعة دقات القلب، وارتفاع درجة الحرارة السطحية في الجسم متواتران في الانفعالات المختلفة، ويتخذ لايكوف من هذه الحقيقة رافدا يسند تجسدن الانفعال بتوسط النظام العصبي الفيزيولوجي، ويسند كون الاستعارات والمجازات المعبرة عن الانفعال فيزيولوجيا أي جسديا، وبذلك يفسر قيام الاستعارات الجارية في الغضب على مفهومي الحرارة والضغط الداخليين، فيكون تمثل الغضب إجمالا كما يلى: الجسد حاوية والغضب نار والدم ماء، نحو هذه العبارات (غلى الدم في عروقي . فار الدم في عروقي . دمه سخن

فهو سريع الغضب . رأسه ساخن . أعماه الغضب، فالغضب منوال عرفاني منضد تنتظمه بنية، هي بنية كامنة في اللغة تتحكم في جميع النماذج العبارية التي يتحقق فيها المفهوم، وهو منوال مجسدن تجسدن الكثير من المناويل المتعلقة بالمشاعر والانفعال)[1].

رابعاً: نظرية الأفضية الذهنية :

الفضاء الذهني هو جملة المعلومات المنظمة المتعلقة بالمعتقدات والأشياء، ويتكون من عناصر، وليس من الضروري أن تكون لتلك العناصر مراجع، هذه العناصر المكونة لصورة الأشياء أو المعتقدات تمثل الخلفية الذهنية عنها التي ستوظف بعد ذلك في التفاعل مع الأشياء الأخرى، ولهذا قد يحدث أن يطابق فضاء ذهني حالا من حال الأشياء في الكون (مطابقة كلية أو جزئية) فيكون التطابق بين عنصر من عناصره وشيء في الواقع، ويكون التطابق بين خصائص الشيء الواقعية[2].

ويمكن تفهم ذلك من خلال هذا التصور :

صورة الشيء في الذهن (الفضاء الذهني عن الحمار مثلا)----> تطابق صورة واقعية لشيء آخر (صورة إنسان يسلك سلوك الحمار مثلا {مطابقة جزئية}) --> يطلق على هذا الإنسان حمارا (نتيجة للمطابقة بين شيئين أحدهما في الواقع {إنسان غبي} والآخر في الفضاء الذهني للمتكلم {الحمار في غبائه}) هذا هو معنى الفضاء الذهني ببسطة شديدة. كما في هذه المعادلة :

شيء في الواقع + شيء في الذهن (يتطابقان أو يتشابهان) = يحل الأول محل الثاني

دور اللغة في صنع الأفضية الذهنية :

يكون بناء الأفضية الذهنية في جميع الأنشطة الرمزية، ولعل أبرز ممثل لها هو النشاط اللغوي. فالمتكلم إنما ينشئ ما لا نهاية له من الأفضية الذهنية في جميع الأقوال التي ينجزها كالمحادثة والقصص ... وتنشأ الأفضية الذهنية نشوءا فوريا أثناء الكلام وتتعدد وتتناسل، فالفضاء الذهني بنية عرفانية تُبنى فيها المجالات وتنتظم وترتابط بأنواع من الترابطات ما بين المجالات. كما في هذه العبارة (يبدو زيد شابا في هذه الصورة) ينبني فضاءان ذهنيان أولهما واقعي؛ هو شخص زيد في العالم الحقيقي الآن، وهو مستمد من

---

(١) نظريات لسانية عرفانية ١٩٥

(٢) المرجع السابق ٢٠٦

التجربة والمقام، وثانيهما فضاء ذهني هو الصورة التي تعرض ملامح الشخص زيد، وفي كل واحد من الفضاءين يوجد {زيد}وهما نظيران.

إن دور اللغة في هذه العملية كنشاط رمزي يكون في المقابلة بين الصورتين (صورة زيد الآن وصورته وهو شاب) فتنطلق نتيجة هذه المقابلة في شكل رموز لغوية تعبر عن هذا الاختلاف، وتصور الفرق بين صورة زيد الآن وصورته القديمة، ولهذا تمثل بناة الأفضية آليات يستعملها المتكلم ليجر سامعه إلى تأسيس فضاء ذهني جديد، وهي العبارات المتحققة في الخطاب تؤسس ابنا لفضاء أساس يترابطان بوجه ما، ولا تحمل بناة الأفضية في ذاتها معلومات عن الفضاء الجديد، وتتكون من الأسماء والصفات وكل ما يعبر عن الزمان والمكان[1] كما في هذه العبارة (عام ١٩٥٩ كان هذا الكهل ذو الشعر الأبيض شابا يافعا) تبنى العبارة عام ١٩٥٩ فضاء ذهنيا يختلف عن الفضاء الأساس، أي عالم الواقع الموافق للزمن الحاضر (الآن) وفيه (شاب يافع) نظيرا للكهل بشعره الأبيض، فالترابط كائن بتطابق هيئتين للشخص الواحد، كل ما سبق من أمثلة تصور كيف تخلق الأفضية الذهنية صورا جديدة وعبارات وكلمات مستحدثة بناء على إنشاء أفضية ذهنية جديدة، يصاحبها تكون دلالات جديدة أيضا تضاف إلى ما في الذهن من كلمات وعبارات ودلالات قديمة .

إن هناك ظاهرة متواترة في الخطاب تحيل فيها العبارة على معناها أو مرجعها إحالة غير معهودة، إذ لا يمكن تفسيرها بمداخل معهودة: من ذلك تسمية الزبون في بعض المطاعم بما طلب من المأكل أو المشرب من قبيل: صحن السمك يريد بعض الليمون، حيث يطلق صحن السمك على شخص يتناول السمك، وهذه الظاهرة، وقريب منها كثير إنما تسمح بها عدد من العناصر المترابطة منها المكان والخدمة المقدمة، وما إلى ذلك مما يمكن أن يجتمع في إطار{خدمة المطاعم}. إن نظرية الأفضية الذهنية منوال في العلاقة بين الدلالة والعرفنة ينطلق من تفسير الظواهر المتواترة، مثل ما حدث فى المطعم (خدمة المطاعم) سعيا إلى إقامة نظرية أوسع في علاقة اللغة بالعرفنة، يكون فيها الكشف عن الاتصال ما بين النحو والتجربة في جميع المستويات، وما يكون به بناء الواقع والتجربة والتعبير عنهما عند الإنسان باعتماد العبارة اللغوية .

---

(١) نظريات لسانية عرفنية٢٠٧

طبيعة التفكير البشري :

ثبت في الدراسات العرفانية أن البشر يهتدون إلى نفس المعلومات ويعالجونها بطرق مختلفة في سياقات ومقامات مختلفة، وقد ثبت ضرورة البحث في ما يمكن للذهن أن يقيمه من عمليات ربط في مختلف السياقات، وفي ما يكون للسياقات المختلفة من آثار في انبناء المعنى، ومن مظاهر الربط ما بين مجال وآخر أن يجرى اللفظ الواحد أو العبارة المنتمية إلى مجال ما قادحا يحيل على وحدة هدف من مجال عرفني آخر.

١- ومن أمثلة الدالة التداولية الرابطة ما بين مجال وآخر أن يترابط المؤلفون والكتب بواسطة دالة تجمع المؤلف بكتابه أو أعماله. فيجرى في هذا اسم المؤلف أوصفاته – وهو القادح هنا – ليحيل على الكتاب – وهو الهدف، نقول يشغل ابن خلدون رفا كاملا في المكتبة ... يقيم العرفانيون مبدأ عاما نصه: كل مفهوم يقتضى في تمثله فضاءين ذهنيين، يكون الواحد منهما أوليا والآخر تابعا له، وتمثل هذه العلاقة قادح – هدف جزءا من الأبنية العرفانية التي تحكم تمثلنا للعالم الذي نعيش فيه، ويمكن تمثيل ذلك :

الأبنية العرفانية التي تحكم تمثلنا للعالم = القادح (ابن خلدون)-->هدف (كتاب ابن خلدون).

٢- من خصائص العرفنة البشرية قيامها على التطابق: التطابق أن تُجرى روابط بين وحدتين في سياقات متباعدة في الزمان أو في المكان، وتعتبر الوحدتين متطابقتين أو تمثلان الشيء نفسه، فقد يذكر الواحد منا شخصا عرفه منذ زمن بعيد، ورغم الفوارق الزمنية، وما تجرّه من تغير في القسمات، أو الشكل بفعل الزمن، ثم يلقاه فيعرفه بعد مدة طويلة أي في سياق زماني أو مكاني آخر، وجميع ذلك قائم على ربط على أساس التطابق بين الشخص في السياقين. فالشخص عند التأمل قد تبدل فلم يعد هو نفسه الذي كان، فهو في الواقع شخص آخر، ولكن بعض الملامح المشتركة بين صورتيه أو تمثيلية (صغيرا في زمن بعيد، وكثيرا في زمن لاحق) تمثل رابطا عرفانيا بين شيئين من مجالين مختلفين على أساس أنهما متطابقان.

٣- العلاقات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره في الواقع: من القدرات العرفانية أن يكون لنا تمثيل لرؤية الذات للكون ورؤية الآخرين له من نفس الزاوية أو من زوايا أخرى.

هو ما يجرى التعبير عنه في المحاورات اليومية البسيطة بعبارات مثل: اجعل نفسك مكاني؛ فما عساك أن تفعل؟ لو كنت مكانك لفعلت كذا كذا. وفي ذلك تمثيل لعالمين ثانيهما مبني على الأول من حيث كانت الذات قد تمثلت رؤية الذات الأخرى لذلك العالم من زاويتها هي، ثم أقامت على تلك الرؤية رؤية أخرى لها هي لذلك العالم، ولكنها أضافت ما هو من زاويتها هي، بأن يكون منها ما لم يكن من الأولى من فعل أو قول أو تصرف .

ومن رؤى الكون، ما ننشئه من عوالم متصورة تقابل العالم الواقع. يكون ذلك في التمني أو الترجي وفي أبنية الشرط، وكل ما عبر في اللغة عن الإمكان عموما يقوم ذلك على الربط بين حالين للعالم واحدة منهما واقعة والأخرى متخيلة بناء على الأولى تطابقها في كثير من الخصائص، ولكنها تختلف عنها في بعض منها، فالتمني قوامه عالم واقعي منطلقا، وعالم متخيل هدفا، مع فارق في حضور شيء في المتخيل وهو مفقود في العالم الواقع كما في (ليت زيدا يصل الآن، ليت هندا تنجز وعدها) فهنا ربط بين فضاءين ذهنيين واقعي وممكن، يرث الممكن منهما سمات الواقعي وفق مبدأ الوراثة، ونحاول أن نبني تصورا لعمل الذهن البشري في عملية التفكير، حيث يتم ذلك من خلال التفكير في الشيء، ثم استدعاء من الفضاء الذهني للمتكلم صورة مشابهة له، أو شيء مرتبط به، ثم المطابقة بينهما بالجمع بين كل عناصر الشيئين في صورة متقابلة، وملاحظة ما في واقع الشيئين وما في التصور عن الآخر .

المنهج والتطبيق :

لقد تحدثنا فيما سبق عن المنهج العرفاني، وعرفنا أنه يقوم بدراسة عمل العقل في فهم وإدراك الأشياء المادية والمعنوية، وكيف نوظف ذلك في بناء الصورة الاستعارية ؟ فالأمر يقوم على تناسبات بين عمليات مختلفة لتحقيق هذا البناء، ولكل عملية دور خاص ومحدد في هذا البناء بدونه ينهدم البناء وتنهار الصورة، ولهذا يجب تجميع هذه الخطوط التي تكوّن نسيج الصورة التي تنتج عن هذه العمليات. فعندما نكوّن صورة استعارية فإننا نقوم بعمليات عقلية متنوعة يمكن أن نستخلصها من حديثنا السابق عن قضايا مثل: الجسدنة وخطاطة الصورة والاستعارة المفهومية، فهي بناء متكامل يتكوّن من تلك العمليات السابقة، التي يمكن أن نعرفها من خلال تحليلنا للصورة الاستعارية،

فالخطاطة لها دور في بناء الصورة، فهي تمثل أساس بناء الصورة برسم الخطوط العريضة للصورة، والجسدنة تقوم بتوضيح دور الجسد في فهم الصورة، فهو محور إدراك الإنسان لما حوله، والاستعارة المفهومية تقوم على إسقاط تناسبات بين المجالين (المصدر والهدف) عنصرا بعنصر ومكونا بمكون.

وبناء على ما سبق يمكننا تحليل الصورة الاستعارية بالاستعانة بهذه النظريات التي تساهم في بنائها، وذلك ببحث عمل كل نظرية في بناء الصورة كما يلي :

١- نظرية الاستعارة المفهومية لها دور في بناء الصورة بإسقاطاتها المختلفة، فما هو؟

٢- نظرية الجسدنة تقوم بتحديد دور الجسد في بناء الصورة، أين هذا الدور؟

٣- نظرية الخطاطة كيف تعمل على بناء الذهن لإدراك الصورة ؟

كل هذه الأمور سيظهرها الجانب التطبيقي للنظرية العرفانية التي توضح عمل العقل في بناء وفهم الصورة الاستعارية على أساس من التخيل والتجسد.

قيمة الاستعارة العرفانية :

١- المنهاج العرفاني ينمي معرفة العلاقات الإضمارية في الأشياء، وأساسها الصورة الاستعارية التي لا تمثل اللغة لعبة مجانية، بل هي معرفة دينامية بالنص والحيثيات الحافة بإنتاجها، ويستشرف قراءة عالمة تعيد بناء اللغة من خلال معالجة استعارية من جهة، ومن خلال الفهم الذي لا يكتفي بالاقتراب من أفضية النص الداخلية، ولا يقف على حدود الانتباه إلى العلامات الطافحة على بنيته السطحية، بل يتعدى ذلك إلى مساءلته، والتعامل معه بصفته نسقا وحدثا وسياقا، ومصدرا من مصادر اللذة، والنشوة من جهة والحيرة والاستفهام من جهة ثانية[١] وهذا يعني أن المنهاج العرفاني يفتح باب الحوار مع النص، مما يجعل المستمع يفكر في ما وراء النص، بل يجعله في عملية استنطاق دائم للصورة، وتوليد معان جديدة منها يستشرفها كل مستمع بطريقته في الفهم، بما يفيد في فهم اللغة والعالم من خلال العلاقات الإضمارية في الأشياء.

٢- الصورة الاستعارية ممارسة عرفانية تخول للمتلقي مقاربة تبادلية لعملية الفهم يصبح بمقتضاها قادرا على فهم موضوع ما واختباره بألفاظ موضوع آخر[٢] وهذا يعنى

---

(١) المنوال المنهاجي والبرهان العرفاني الاستعارة التصورية في أشعار الهذليين أنموذجا ، عامر الحلواني،ط١، صفاقس (تونس)٢٠٠٩ص٥١

(٢) المرجع السابق٥٢

أن الدلالة الموجودة في الموضوع الأصلي ستتحول إلى الموضوع الجديد من خلال الصورة الاستعارية، أي يتحول القصد التصوري الذهني عن الشيء إلى قصد تصوري ذهني لموضوع آخر عن طريق الإحالة على نوع الاستعارة التصورية .

٣- المنهاج العرفاني يرى أن الاستعارة ليست مظهرا لغويا صرفا، بل هي انفتاح على آفاق من الفهم، يجعل من الاستعارة نشاطا ذهنيا ندرك من خلاله العالم من حولنا ونمارس به تجاربنا بشكل استعاري .

٤- التصور العرفاني للاستعارة :

أ- يجعل الاستعارة تلعب دورا يوازي - من حيث أهميته - ذلك الدور الذي تلعبه حواسنا في مباشرة إدراك العالم وممارسة تجربته، فعن طريق الاستعارة يمكن أن نرى ونسمع ونحس أشياء لا تُرى بالعين، ولا تُسمع بالأذن، ولا تحس باللمس.

ب- يجعل نسقنا التصوري يلعب دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية، فنحن نعتمد على نسقنا التصوري وما به من أشياء وأحداث في إدراك ما حولنا من حقائق جديدة .

جـ- الاستعارة في اللغة ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النسق التصوري لكل منا، فالاستعارة اللغوية تعتمد على النسق التصوري المسبق لنا حول الشيء.

العلاقة بين المنهاج العرفاني والاستعارة التصويرية :

الأساس الإبستيمولوجي للمنهاج العرفاني أن الاستعارة التصويرية تمثل القطب الذي تدور عليه رحى هذا المنهاج، وأنها تشكل نسقا فكريا مخصوصا له صنافته التصويرية الأصلية والفرعية، ومقاصده المعلنة والخفية، فالمنهاج العرفاني يقوم على دراسة الاستعارة التصويرية، وما تم في سبيل إنشائها من عمليات عقلية، فهي المادة التي يقوم على تفسيرها هذا المنهاج، فلا تعارض بين الاستعارة التصويرية والمنهاج العرفاني، فالاستعارة التصويرية تشكل نسقنا الفكري، والتصوري حول الأشياء، والمنهاج العرفاني يعرض لكيفية بناء هذا النسق .

لذا نرى لايكوف وجونسن قد حددا الأشكال النسقية للتصورات الاستعارية حسب الوظائف التي تنجزها، وهي (الاستعارات البنيوية والأنطولوجية والانتحائية) ولكنها في مجملها استعارات تصويرية تُبْنِين نسقنا التصوري حول الشيء، من خلال العمليات العقلية المختلفة، ولذا يعد لايكوف مؤسس العرفانية .

يقول د. عامر الحلواني (ومما ينبغي تأكيده في هذا السياق – ونحن بصدد الكلام على الأساس الإبستيمولوجي للمنهاج العرفاني – أن النظرية التجريبية العرفانية تقوم على مفهوم جوهري أساسه التصورات الاستعارية، فالنسق التصوري الذي يسير تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية، تمثل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها باعتبارها مصدرا مهما للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق، لذلك تعد الاستعارة التصويرية بعدا مهما من الأبعاد المشكلة قصد الدلالة في التصور العرفاني[1] فالاستعارة التصويرية في نظر العرفانيين صُنعت من أجل الدلالة، وهي أصلي وأساس المنهاج العرفاني، وهي تشكل نسقا فكريا مخصوصا له صفاته التصويرية الأصلية والفرعية والمعلنة والخفية .

(١) المنوال المنهاجي والبرهان العرفاني ٥٣